International Jordanian Journal Aryam for Humanities and Social Sciences; IJJA
Volume 6, Issue 3, 2024

"Poetic Hymns and Faith Doubts in the Works of Poets Tijani Youssef Bashir and Elia Abu Madi: A Comparative Study of Al-Sufi Al-Mu'adhab by Tijani and Al-Talasim by Elia"

Dr. Aqila Laachabi

Received: 5/6/2024
Revised: 9/7/2024
Accepted: 19/8/2024
Published online: 23/9/2024

* *Corresponding author:*
Email: Laachabi@gmail.com

Citation: *Laachabi. A. (2024). Poetic Hymns and Faith Doubts in the Works of Poets Tijani Youssef Bashir and Elia Abu Madi: A Comparative Study of Al-Sufi Al-Mu'adhab by Tijani and Al-Talasim by Elia. International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 6(3).*

https://doi.org/10.65811/638

Copyright:

The Author (s) ©2024. This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) license.

https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences: Issn Online 3006-7286

Abstract: This study examines the theme of faith-related doubt in poetry, focusing on Sudanese poet Tijani Youssef Bashir's Al-Sufi Al-Mu'adhab and Lebanese poet Elia Abu Madi's Al-Talasim. It analyzes how doubt is portrayed in both texts and its significance in exploring faith and disbelief, with emphasis on the literary and poetic aspects. The study is divided into four sections, comparing the poets, analyzing each poem, and addressing the literary perspective on faith and disbelief.

Keywords: Tijani, Elia Abu Madi, Faith Doubts, Comparative Literature.

الترانيم الشعرية والشكوك الإيمانية عند الشاعرين: التيجاني يوسف بشير وإيليا أبي ماضي

(مقارنة بين قصيدتي: الصوفي المعذب للتيجاني، والطلاسم لإيليا)

د. عقيلة لعشبي

الملخص: تركز هذه الدراسة على فكرة الشك الإيماني في الشعر، مستعرضة أعمال الشاعرين: السوداني التيجاني يوسف بشير في قصيدته الصوفي المعذب، واللبناني إيليا أبي ماضي في قصيدته الطلاسم. تحلل الدراسة كيف تجلت الشكوك في النصين وأهميتها في معالجة قضايا الإيمان والكفر، مع التركيز على الجانب الأدبي الشعري. وقد تم تقسيم الدراسة إلى أربعة مباحث تناولت مقارنة الشاعرين وتحليل كل قصيدة والمنظور الأدبي للإيمان والكفر.

الكلمات المفتاحية: التجاني، إيليا أبي ماضي، شكوك إيمانية، أدب مقارن.

المقدمة

الشك عند اللغويين خلاف اليقين[١]، وهو الريبة[٢]، وهو نقيض اليقين[٣]، وجاء في السيرة: (البرّ ما اطمأنت إليه النَّفس، والإثم ما حاك في النَّفس وتردد في الصَّدر وإن أفتاك النَّاس وأفتوك)٤. والكائن البشري ينطوي، بتكوينه الفطري، على الكثير من السمات العقلية والفكرية، المتجانس منها والمتباين، وليست من شك في أن تلك السمات المتجانسة أو المتنافرة؛ هي التي تشكل قوام السلوك البشري وتحدد ملامح شخصية هذا المخلوق الإلهي المثير للجدل بما انطوى عليه من الأخلاط، فالإنسان مزيج من السمو الروحي السماوي العلوي، والنزعات السفلية الشيطانية؛ يقول تعالى:

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) ص: ٧١-٧٢.

ولكن مخلوقًا آخر وهو الشيطان (إبليس) قد شعر بالحسد للإنسان وداخله الكبر فاستهان بالمخلوق الطيني متعاليًا عليه؛ يقول تعالى:

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)الأعراف: ١٢.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) الإسراء:٦١.

إن تلك النزعات تمور في الصدور وتتعارك في تلافيف العقول؛ مما جعل البعض يتشكك ويشعر بالحيرة تجاه الأديان، وقد شن الكاتب الإنجليزي كولن ويلسون[٥] هجومًا كاسحًا، على الأديان وخاصة المسيحية واليهودية وهو يرى "أن الإنسان هو من اخترع فكرة الإله أو الآلهة رهبة منه أو رجاء – ثم عين الكهنة لخدمتها". أما محمد محمود[٦]، فأعلنها داوية صريحة حين نفى وجود الله وصرح، كولن، أن الإنسان هو من صنع الآلهة وأوجدها وليس العكس[٧]. وليست من شك أن مثل هذه الأقوال هي اعتقاد جازم ورأي صريح، لا مواربة فيه، ينفي الأديان والوجود الإلهي بالكلية. ولا حاجة بنا لمناقشته ومجادلته، ولكنه مفهوم يشير إلى أن تلك النزعات الشكوكية والأوهام الظنونية، تكمن بين الإيمان اليقيني والكفر الإلحادي. وقد نشأت الحركة الشكوكية الفلسفية في اليونان وهي تدعو إلى الشك في ما لا يتحققه الإنسان بالتجربة، وجَهِد الشكوكيون في إضعاف ثقة الناس بالعقل باعتباره وسيلة لفهم الوجود، وجادلوا ضد كل المدارس الفلسفية والدينية[٨].

خصصت هذه الدراسة للمقارنة بين شاعرين، من خلال قصيدتين تنضحان بالشك وتفيضان به بشكل يجعلهما نموذجًا لدراسة مفهوم الشك عند الشاعرين اللذان تعاصرا، من حيث الفترة الزمنية، والشاعران هما: التيجاني يوسف[٩]، في قصيدته "الصوفي المعذب"، والتيجاني، وإن لم ينل حظًا كبيرًا من

١/ إسماعيل بن حماد الجوهري: مختار الصحاح، ص: ٢٧٦٦، مادة: (ش ك ك).

٢/ محمد بن الحسن بن دريد: جمهرة اللغة، ص: ، ٣٢٥.

٣/ ابن منظور: لسان العرب، مادة: (ش ك ك).

٤/ ابن كثير: البداية والنهاية، ص: ٤٢٤٤.

٥/ كولون ويلسون: الجنس والشباب الذكي، ص: ٣٤، ترجمة: عمر شاهين، جماعة حور الثقافية، (مصر) ١٩٩٩م.

٦/ أكاديمي سوداني عمل بالتدريس في كلية الآداب جامعة الخرطوم، ومعهد الدراسات الشرقية بجامعة أوكسفورد وجامعة تفتز بالولايات المتحدة...، ونشر العديد من الأبحاث والدراسات.

٧/ محمد محمود: نبوة محمد التاريخ والصناعة، ص: المقدمة (ح)، مركز الدراسات النقدية للأديان (لندن) ٢٠٠١٣م.

٨/ الموسوعة العربية العالمية ٢٠٠٤م.

٩/ أحمد التِّيجاني يوسف بشير الفكي جزري الكتيابي (١٣٣٠ ـ ١٣٥٦هـ ، ١٩١٢/٢/٢٨ـ ١٩٣٧/٧/٢٨م). أحمد التيجاني يوسف البشير، شاعر سوداني. وُلد في مدينة أم درمان، وتلقى تعليمه في خلوة جده الكتيَّابي، والخلوة هي مكان تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والحساب، والكِتَيَّاب أسرة ذات حسب ونسب تتّصل أسبابها بقبائل الجعليين في السودان.كان للخلوة أثر كبير على نفسه وشعره، وقد

الذيوع والإنتشار، إلا أنه شاعر لا يشق له غبار في ميدان الشعر وضروبه، والثاني هو، إيليا أبو ماضي١٠، في قصيدته، الذائعة الصيت كقائلها وهي قصيدة "الطلاسم". إن كلا القصيدتين تعبران عما كان يعتمل في صدر الشاعرين من صراعات وتجاذبات إلحادية وإيمانية، وهي نزاعات كثير ما تنتاب المفكرين من ذوي العقول النورانية المشعة بالمعرفة. يقول ميخائيل نعيمة: "يطوي العبقري في عمر واحد أعمار أجيال سبقته، وأجيال رافقته، وأجيال تأتي بعده؛ فيموت ليحيا ويحي غيره ليموت"١١.

تنبع أهمية هذه الدراسة من أهمية الشعور الإيماني والاقرار بوجود إله واحد خلق هذا الوجود وله القدرة على البعث والنشور.

المقارنة بين الشاعرين التيجاني وإيليا، من خلال قصيدتيهما: الصوفي المعذب الطلاسم.

تحليل النصين من خلال النظرية البينوية.

دراسة الشك في من منظور أدبي.

تعتمد الدراسة هذه أسلوب المنهج المقارن.

ورد هذا الأثر واضحًا في عدد من قصائده مصورًا ذلك الجو العلمي وماعاناه في حفظ القرآن وتلقي دروسه. وفي العام ١٩٢٦م انتقل التيجاني من الخلوة إلى المعهد العلمي بأم درمان لمواصلة دراسته في العلوم العربية والشرعية، ولكنه فُصل من المعهد في العام ١٩٣١م.

عمل بالصحافة حيث تفرغ للقراءة في التراث العربي شعرًا ومؤلفات، فعكف على دواوين الشعر وأمهات الكتب، كما شغل نفسه بدراسة الفلسفة والتصوّف. كانت أمنيته السفر إلى مصر لإكمال دراسته ولكن ظلت هذه الأمنية عزيزة المنال ولم تتحقق، فأصيب بخيبة أملٍ شديدة.

١٠/ إيليا ضاهر أبو ماضي (١٣٠٧ - ١٣٧٧هـ ، ١٨٨٩ - ١٩٥٧م). شاعر وصحفي لبناني من أشهر أدباء المهجر. ولد في قرية المحيدثة، وترك المدرسة في سن الحادية عشرة، متوجهًا إلى الإسكندرية طلبًا للرزق عن طريق التجارة، مخصصًا بعض أوقاته للمطالعة ونظْم الشعر. تأثر ببيان القرآن الكريم، وأفكار المعري، وشعر أبي نُوَاس. وقبل أن يبلغ العشرين من عمره أصدر ديوانه الأول تذكار الماضي (١٩١١م)؛ وفيه تقليد واضح لأساليب العصر العباسي الشعرية. هاجر إلى أمريكا عام ١٩١٢م، واشتغل بالتجارة أربع سنوات مع أخيه الأديب مراد أبي ماضي. ثم اشتغل بالصحافة؛ محررًا في: الحرية والمجلة العربية وزحلة الفتاة ومرآة الغرب. وأنشأ مجلة السّمير عام ١٩٢٩م، نصف شهرية ثم أسبوعية، ثم حوّلها إلى جريدة يومية عام ١٩٣٦م، واستمرت في الصدور حتى وفاته بالسكتة القلبية عام ١٩٥٧م في بروكلين (نيويورك). انضم إلى الرابطة القلمية في نيويورك عام ١٩١٦م، فتأثر بجبران ونعيمة. لكنه تمسّك بالطبيعة والواقع، رافضًا الاستسلام لتيار الصوفية. وقد نشر وهو في نيويورك ثلاثة دواوين هي: ديوان أبي ماضي (١٩١٨م)؛ الجداول (١٩٢٧م)؛ الخمائل (١٩٤٧م). وبعد وفاته نشرت له دار العلم للملايين ديوان تبر وتراب (١٩٦٠م).

١١/ جبران حليل جبران: ثلاثة كتب في كتاب، ص: ٩، دار الهلال (مصر) ١٩٥٤م.

المبحث الأول

بين الشاعرين

إن ثمة سمات مشتركة قد جمعت بين كل من التيجاني وإيلياء، وربما كان ذلك هو ما أدى إلى التقارب أو التشابه بين النصين اللذان تتناولهما هذه الدراسة بالمقارنة التحليلية، من هذا الباب تم تقسيم هذا المبحث إلى بضع نقاط: ١/ نقاط التلاق والتلاحم. ٢/ نقاط التماس التباينية. ٣/ مدخل نفسي. ٤/ من وحي العنوان. ٥/ بنيوية النص.

.أولاً: نقاط التلاقي والتلاحم:

لعبت أياد القدر دورًا في حياة، التيجني وإلياء، فالقدر هو الذي أوجد قدرًا من نقاط التلاقي والتلاحم التي جمعت بينهما فشكلت نوعًا من الإنسجام الفكري والثقافي والوجداني .. بين الشاعرين، ففي البدء، إن كليهما ترك الدراسة النظامية في وقت مبكر من سني العمر النضرة. ثانيًا: توجه كلا الصغيرين، في طفولتهما، إلى سوق العمل، حيث عمل التيجاني، في صغره، في محطة للوقود، وعمل إيليا بالتجارة في الحادية عشرة من عمره، من أجل كسب العيش. ثالثًا: بالرغم من تركهما لمقاعد الدراسة إلا أن كلا الشاعرين قد عكف على تثقيف نفسه وتعليمها بشكل ذاتي. رابعًا: تلازما في الشغف بالقراءة والنهم الشديد إلى مطالعة الأدب، لاسيما الشعر، والفلسفة التي تبعث على التأمل في الأشياء والتفكر بعمق في الوجود، يقول التيجاني: فصرت أقسم وقتي، بطريقة مناسبة، بين الدرس ومطالعة كتب الأدب والتاريخ١٢. خامسًا: منذ وقت مبكر كانت كتابة القريض هي الشغل الشاغل لكليهما. سادسًا: شكل حب الصحافة وعمل بها أقوى نقاط التلاحم الأساسية والرئيسة بين الشاعرين١٣. ويصف التيجاني شغفه بالصحافة فيقول: أصبحت في يدها الحل والعقد ومقبض نواصي الآباء والأجداد ...، إنها فكرة نبتت على ثرى المريخ فحصدتها الملائكة ثمرًا ...، فجاء والتقطها أول مار على الطريق الأقدس ...، دفعها إلى فمه فوجدها ألذ مما كان يحتسب وأشهى مما كان يظن. ...، إنها أفكار إلهية ...، ميول إلى القراءة. ميول إلى الكتابة. ميول إلى التفكير١٤.

.ثانيًا: نقاط التماس التباينية:

كان حلم التوجه لمصر يراود كليهما، وقد عجز التيجاني عن تحقيقه، في حين حقق إيليا بغيته ومنها انطلق إلى أمريكا، حيث حقق الشهرة العالية والمكانة السامقة، ولو تمكن التيجاني من تحقيق ذلك الحلم لذاعت شهرته وملأت الدنيا وعمت الآفاق، ولكن حظه العاثر وقف حجر عثرة أمام حلمه الذي مات، وصداه يتردد في شعره، دون أن يحققه؛ فقال١٥:

أملي في الزمان مصر فحيا الله مستودع الثقافة مصرا
نضَّر الله وجهها فهي ماتزداد إلاّ بعدًا عليّ وعسرا

***

يا بن مَصر وَعِندَنا لَكَ ما نَأ * مل تَبلغيه مِن الخَير مَصرا
قُل لَها في صَراحة الحَق وَالحَ * ق بِأَن يُؤثر الصَراحة أَحرى
وَثِقي مِن عَلائق الأَدَب البا * قِي وَلا تَحفلي بِأَشياء أُخرى

١٢/ التيجاني يوسف بشير: الآثار النثرية الكاملة، ص: ١٠.
١٣/ الموسوعة العربية العالمية الإصدار الأول ٢٠٠٤م.
١٤/ التيجاني يوسف بشير: الآثار النثرية الكاملة، ص: ١٤٥.
١٥/ موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول ٢٠٠٩م.

وَقِفي بِالصَلات مِن حَيث لا تَع * رف إِلّا مَسالك الفكر مَجرى

ويحن التيجاني لمصر ويتعشقها، حتى في نثره، فيقول: "خير لنا ولمصر الأدبية أن نعنى بهذه الروابط وأن نوفق بين هذين البلدين وشائج المعرفة الأدبية الصحيحة"١٦.

تمكن إيليا من إصدار ديوانه الأول "تذكار من الماضي" وهو دون العشرين من العمر، بينما صدر ديوان التيجاني، الوحيد، "إشراقة" بعد أن وافته المنية وغادر هذه الفانية.

لقد تلبس التيجاني بالحس الصوفي والشعور الديني بشكل أكثر وأعمق من نظيره إيليا؛ ولعل ذلك يعود إلى تأثير التعليم الديني الذي نهل منه التيجاني ابان دراسته بالخلوة، أولاً، والمعهد العلمي، ثانيًا، ولكن إيليا، بالرغم من تأثره بالدين، إلا أن مسحة التعليم الغربي تتجلى في نمط ثقافته الغربية الذي طغى على أفكاره ونماذجه الشعرية١٧.

لم ينعم التيجاني بحياة طويلة ولا بالعيش الهانئ، حيث كابد ألم الفصل من المعهد وحرمانه من التعليم، ومات بداء الصدر وهو في ريعان العمر وميعة الشباب، وكأنه قد تنبأ بقصر عمره حين قال:

يا لأعمارنا القصار إذا لم * نتقحم بفكرنا ميدانه١٨

والقدر، وإن تقدم بإيليا، إلا أنه مات بذبحة قلبية بعد أن عاش سنوات طوال في أرض الأحلام (أمريكا).

. ثالثًا: مدخل نفسي:

ربما كان من الصعب تصور الظروف البيئية النفسية للشاعرين والتي، من المؤكد أنها، أسهمت بشكل فعال في بلورة التفكير العقلي والشعور الروحي والنفسي عند الشاعرين؛ مما ساعد على ولادة القصيدتين وخروجهما من رحم الفكرة إلى حيز الوجود النصي؛ ولكن قد يكون من السهل على كل مطلع على سيرة الشاعرين تصور الظروف البيئية بأنواعها، الاجتماعية والجغرافية والسياسية والاقتصادية، التي عاشا فيها ومدى تأثيرها على الجانب النفسي والسلوكي لكليهما، فمن حيث البيئة الاجتماعية فقد افتقر كلاهما للحياة الاجتماعية المتوازنة لاسيما في الطفولة التي لم يتمتعا ببراءتها طويلاً، كذلك شكلت البيئة الاقتصادية الفقيرة عنصرًا من عناصر الضغوط النفسية التي شابت روح الشاعرين ورسمت ملامحُها على محاياهما ملامحَ الكآبة والقلق النفسي، وأيضًا، أضافت الغربة، الحسية المادية والنفسية المعنوية عبئًا إضافيًا لدى إيليا الذي رحل وابتعد كثيرًا وطويلاً عن الوطن وعن الدفئ الأسري، فعاش في غربتين في آن واحد؛ يقول إيليا:

ذاتُ شَوكٍ كَالحِرابِ أَو كَأَظفارِ العُقابِ * رَبَضَت في الغابِ كَاللِصِّ لِفَتك وَاِستِلابِ
تَقطَعُ الدَرَبَ عَلى الفَلاح وَالمَولى المَهابِ * صُنتُ عَنها حُرَّ وَجهي فَتَصَدَّت لِثِيابي
كُلَّما أَفلَتُّ مِن نابٍ تَلَقَّتني بِنابِ * فَلَها نَهشُ الأَفاعي وَلَها لَسعُ الذُبابِ
وَأَذاها في سُكوني كَأَذاها في اِضطِرابي * وَهيَ كَالقَيدِ لِساقي وَلِجيدي كَالسَخابِ
فَكَأَنّا في عِناقٍ لا نِضالٍ وَوِثابِ * قُلتُ يا ساكِنَةَ الغاب وَيا بِنتَ التُرابِ
لا تَلَجّي في اِجتِذابي أَو فَلَجّي في اِجتِذابي * إِنَّ عوداً فيهِ ماءٌ لَيسَ عوداً لِاِحتِطابِ
أَنا في فَجرِ حَياتي أَنا في شَرخِ شَبابي * الهَوى مِلءُ فُؤادي وَالصِبى مِلءُ إِهابي

أما بالنسبة للتيجاني فقد شكل داء السل، وهو داء قاتل، ثالثة الأثافي، فظل يعاني منه إلى أن اخترمته يد المنية، محسورًا على شبابه النابه والذهن المتوقد؛ وكأن التجاني يرثي روحه حين يقول:

١٦/ التيجاني يوسف بشير: الآثار النثرية الكاملة، ص: ٨، جمع وتحقيق: بكري بشير الكتيابي، مطابع راي (السودان) ١٩٧٨.
١٧/ نفس المصدر، ص: ١٢١.
١٨/ المصدر السابق، ص: ٧.

أَيُّها الشاعر المَجيد وَمَجد الش * عر مِما تَدوّي بِهِ الآفاق
أَرَأَيت الصَديق يَأكله الدا * ء وَيَشوي عِظامه المِحراق
مارد هذِهِ السِقام وَلَكن * صَبره الجَم لِلضَنى دَفاق
جَف مِن عوده النَدى فَتَعرى * وَتَنفت مِن حَولِهِ الأَوراق
وَذَوي قَلبه النَضير وَقَد كا * نَ لَهُ فِي زَمانِهِ تخفاق
رَحم اللَهُ عَهدهُ فلَئن عا * دَ فَعِندي لِدَهرِنا مِيثاق
وَأَنا اليَوم لا حِراكَ كَأَن قَد * شَدَ فِي مَكمَن القِوى أَوثاق
بِتُ أَستَنشق الهَوى اِقتِسارا * نَفس ضَيق وَصَدر طاق
وَحَنايا مَعروقة وَعُيون * غائِرات وَرَجفة وَمَحاق

.رابعًا: من وحي العنوان:

بالرغم من التشابه أو التقارب بين مضمون النصين إلا أن كلا العنوانين يحمل في طياته دلالات نفسية وفلسفية تختلف عن الآخر، فمن الوهلة الأولى تلمح أن كل عنوان يمثل تعبيرًا يشي بخلجات النفس وينم عن بواعث تفكير متباينة بين الشاعرين، حيث وقع اختيار التيجاني على اسم "الصوفي المعذب" كعنوان يعبر عن فلسفته ودخيلة نفسه، وفيه تتجلى النزعة الدينية المتصوفة بوضوح، أما إيليا فكان "الطلاسم" هو العنوان الذي عبر من خلاله عن مكنون ذاته العقلية الزاخرة بالمعارف الحسية المادية المكتسبة من فلسفة التعليم الغربي الذي حظي به منذ الصبا، وأيضًا، حين كان يعيش في الغرب. والملفت، من خلال عنواني القصيدتين، هو أن نص التيجاني يوحي بشك إيماني، كما سيتجلى حين نعرض للنص بالتحليل المقارن، أما نص إيليا فتكتنفه هواجس الشكوك الطاغية والتي غطت على الشعور الإيماني الذي كان يلوح ثم يختفي بين أبيات القصيدة، مفسحًا المجال للكثير من الشكوك والظنون والهواجس؛ ويلوح ذلك من خلال السؤال، الذي تكاثر وتكاثف في النص، وعدم توفر الإجابة عن تلك التساؤلات المتصلة حتى نهاية النص.

.خامسًا: بنيوية النص:

استخدم التفكير البنيوي كمصطلح حديث، في القرن ١٧م؛ بغرض فهم العلاقة الكلية، من الداخل، ومصطلح البنيوية (Structural Linguistics)١٩ عبارة عن منهج أو مذهب فكري يهتم بالشكل أو الاطار العام للمفهوم أو العديد من المفاهيم التي يجمع بينها عامل مشترك أو تكون على صلة فيما بينها، فالبنيوية، كمنهج، تقوم على دراسة الصلات والعلاقات البينية الداخلية، أكثر مما تعنى بطبيعة الموضوع نفسه. أي أن مفهوم النظرية البنيوية أو المذهب البنيوي يرتكز على النظر إلى الفكرة الأساسية التي تنبني عليها وحدة البناء النصي، ومن ثم تنطلق النظرة إليه من الداخل بغرض تفكيكه إلى عناصر متحدة أو موضوعات مترابطة وذات صلة بالفكرة الأساسية للنص٢٠.

والناظر المتأمل للنصين، من الداخل، لا يخفى عليه أن عنصر الشك هو العامل المشترك والرابط الموحد في النصين، فهو المحور الرئيس الذي تدور حوله جميع الوحدات والموضوعات المتعلقة ببنية النص في القصيدتين، فجميع الموضوعات الأخرى لا تمثل سوى عوامل مساعدة لترسيخ مفهوم الفكرة الأساسية التي تقوم على الشك، لا سيما عند إيليا، بما لديه من ملكات فكرية وفلسفية عظيمة، والذي

١٩/ رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص:١٥٦

٢٠/ مقال منشور للباحث، مفهوم انتاج اللغة وتكونها لدى المدرسة البنيوية/السلوكية والمدرسة التوليدية/التحويلية، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، ص: ٥٤-٨٢، مجلد:٤، عدد:٤، ديسمبر ٢٠٢٠م.

يبرز شكوكه، منذ البيت الأول، ولا يخفيها:
جِئتُ لا أَعلَمُ مِن أَين وَلَكِنّي أَتَيتُ * وَلَقَد أَبصَرتُ قُدّامي طَريقاً فَمَشَيتُ
أما عند التيجاني فالملاحظ هو أن عنصر الشك يكون مخفيًا ولا يظهر إلا بشكل مفاجئ في منتصف النص، والذي يبدأه التيجاني بروحانية إيمانية لا متناهية وبسمو روحي عال متدفق قد تفجر من أعماق قريحة عبقرية ونفس شاعرية:
هَذِهِ الذُرة كَم تَحم * ل في العالم سَرا
قف لَدَيها وَامتَزج في * ذاتِها عُمقاً وَغورا
وَانطَلق في جَوِها * المَملوء إيماناً وَبَرا
وَتَنقل بَينَ كُبرى * في الذَراري وَصُغرى
تَرَ كُل الكَون لا يَفت* ر تَسبيحاً وَذِكرا
المبحث الثاني
الصوفي المعذب - التيجاني
تتحدث أبيات التيجاني عن موقفين منفصلين، وكأن الأبيات صادرة عن شخصين ينطقان بلسانين مختلفين، لا شخص واحد، ففي النصف الأول ترتسم شخصية التيجاني المؤمن بوجود إله واحد خالق ومدبر لحركات وسكنات هذا الوجود الكوني الشاسع والمترامي، ثم يأتي النصف الثاني من القصيدة وقد توشحت شخصية التيجاني بأثواب الشك وتسربلت بعدم اليقين، والملاحظة الجديرة بالوقوف عندها، أنه بدأ بالموقف الإيماني أولاً ثم انتهى بالغوص في لجج الظنون ودوامة الشكوك، وأكاد أجزم بأن موقفه هذا لم ينجم عن كفر أو إلحاد؛ بقدر ما أنه كان نتيجة حتمية لما لاقاه من تعنت الشيوخ الذين رموه بالكفر والإلحاد ومن ثم عمدوا إلى فصله من المعهد العلمي؛ وقد تركت هذه الحادثة أثرًا عميقًا وجرحًا غائر في نفس التيجاني فخلدها بقوله:
قالوا وأرجفت النفوس وأوجفت * هلعًا وهاج وماج قسور غابِه
كفر ابن يوسف من شقي واعتدى * وبغى ... ولستُ بعابئ أو آبِهِ
قالوا احرقوه بل اصلبوه بل انسفوا * للريح ناجس عظمه وإهابِه
ولو أنَّ فوق الموت من مُتَلَمَّس * للمرء مُدّ إليَّ من أسبابِـهِ
وهو غير عابئ ولا آبه، استهزاءً منه بأولئك الذين تعنتوا ضده وتصلبوا في موقفهم منه؛ وبهذا يمكن أن تتوفر للتيجاني مندوحة تخرجه من دائرة الكفر البواح وتدخله في زمرة المتهكمين والساخرين من سلوك رجالات الدين وليست من الدين نفسه، والفرق بين الموقفين واضح وضوح الشمس في كبد السماء في رابعة النهار، وهو هنا أشبه بطه حسين الذي سخر من بعض الشيوخ في كتابه "الأيام"[٢١]، كما سخر جبران، في كتاباته، من الكهنة والرهبان، يقول جبران: هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالفضة والذهب ...[٢٢].
أ/ الموقف الإيماني:
لقد سبقت الإشارة، من قبل، إلى أن ثمة مخرج يمكن أن ينفذ منه التيجاني لينجو من براثن الكفر الذي رمي به والإلحاد الذي ألصقت تهمته به، زورًا وبهتانًا، والأبيات، التي نحن بصددها، تؤكد هذا الزعم

٢١/ طه حسين: الأيام، ج١، ص: ٣٠، ٤٤، دار المعارف، (مصر) ١٩٨٠م.
٢٢/ جبران خليل جبران: عرائس المروج، ص: ٤٣، المكتبة الثقافية (بيروت).

فالقصيدة، في نصفها الأول، تزدحم فيها الصور الإيمانية ويتجلى فيها جلال الوحدانية الكونية:

تَرَ كُل الكَون لا يَفت * ر تَسبيحاً وَذِكرا

ويتوقف التيجاني أمام عظمة الجمال الكوني الباهر والروعة الإلهية الزاهية، وهو، بلا شك، موقف يخلب الألباب ويسبي العقول ويفتنها بعبقريته ونضارته:

وَانتش الزَهر وَالزَهرة * كَم تَحمل عُطرا

نَديت وَاستَوثَقت في الأَر * ض إعراقاً وَجَذرا

وَتَعرت عَن طَرير * خَضل يَفتأ نَضَرا

سَل هِزار الحَقل مِن أَنب * تهُ وَرداً وَزَهرا

وَسَل الوَردَة مَن أَو * دَعَها طيباً وَنَشرا

تَنظُر الرُوح وَتَسمَع * بَينَ أَعماقك أَمرا

ويرى التيجاني أن الوجود الإلهي يتجلى بوضوح شديد في كل شئ، لاسيما، في الدقيق من المخلوقات كانمل، مثلاً:

كُل ما في الكَون يَمشي * في حَناياه الإله

هَذِهِ النملة في رَقَتِ * ها رَجع صَداه

هُوَ يَحيا في حَواشيها * وَتَحيا في ثَراه

وَهِيَ إن أَسلَمَت الرُو * ح تَلَقَتها يَداه

لَم تَمُت فيها حَياة اللَه * إن كُنت تَراه

تجد الإشارة هنا إلى أن التيجاني يشير، في بيتيه هذين، إلى أن الله قد صاغ الجن من النار وأبدع من النور الإنس، وليته، مع الإنس، استخدم (روحك) بدلاً من (نورك) فالنور للملائكة، ومن المعلوم أن الإنسان نفحة إلهية؛ يقول تعالى:

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) الحجر: ٢٩.

ولكن التيجاني، بعد هذا، لم يملك إلا أن يقف مسبحًا العظمة الربانية والإبداع الإلهي:

رَب سُبحانَك إن الكَون * لا يَقَدر نَفسه

صُغت مِن نارك جَنيه * وَمِن نُورك أُنسه

ويختم هذا الجزء الإيماني من القصيدة بأبيات تحمل بين كلماتها دلالة صوفية تعبدية:

في تَجلياتك الكُب * رى وَفي مَظهَر ذاتك

وَالجَلال الزاخر الفَيّاض * مِن بَعض صِفاتك

وَالحَنان المُشرق الوَضّ * اح مِن فَيض حَياتك

وَالكَمال الأَعظَم الأَعلى * وَأَسمى سبحاتك

قَد تَعبدتك زُلفى * ذائِداً عَن حُرماتك

فَنيت نَفسي وَأَفرَغت * بِها في صَلواتك

ب/ موقف الشك والظنون:

في هذا الجزء، من القصيدة، يتحول التيجاني إلى شخصية أخرى غير تلك التي كانت في النصف الأول، فيقف موقف المتشكك في كل شئ، فتجده يتساءل:

ثُمَ ماذا جَد مِن بَعد * خُلوصي وَصَفائي؟

لتأتي الإجابة بعد هذا التساؤل، وكأنها آهة حرة تنبعث من أعماق صدر ملأه الشك وغاب عنه نور الحق المبين، ولسان ينطق من غير يقين:

أَظلَمت رُوحي ما عُد * ت أَرى ما أَنا راء
أَيَهذا العَثير الغا * ئم في صَحو سَمائي
لِلمَنايا السود آما * لي وَلِلمَوت رَجائي
آه يا مَوت جُنوني آه * يا يَوم قَضائي

ويصعد التيجاني أعلى درجات سلم الشك ليبلغ ذروته ويصرح لسانه، دون مواربة، بما يدور في دخيلة نفسه وما انطوت عليه سريرته من أفكار لم يمحها التعليم الديني ولم يملك لها دفعًا ولا كتمانًا:

فَمَشَت غائِلة الشَ * ك إِلى فَجر يَقيني

وفي آخر أبيات القصيدة يتمادى التيجاني في شكوكه فيبوح بمكنون صدره بشكل تفصيلي، وكأنه يستصرخ الجميع ليعلمهم بما يعتمل في خفايا الصدر وحنايا الفؤاد:

قَضَت اللَذة فِاَستَرَج * عها لَمح ظُنوني
وَاِستَرد النعمة الكُبرى * مِن الدَهر حَنيني
مَن تَرى اِستَأثر بِاللَذ * ة وَاِستَبقى جُنوني
أَذني لا يَنفد اليَو * م بِها غَير العَويل
نَظَري يَقصر عَن كُل * دَقيق وَجَليل
غابَ عَن نَفسي إِشرا * قك وَالفَجر الجَميل
وَاِستَحالَ الماء فَاِستَح * جر في كُل مَسيل
رَجع اللَحن إِلى أَو * تاره بَعدَ قَليل
وَاِختَفى بَينَ ظَلام المُ * زهر الكُل العَليل

وللتجاني أبيات أخر يتوهج فيها الشك وتنطق بلسان المتشككين؛ حيث يقول٢٣:

يا مُظلم الروح كَم تَشقى عَلى حَرق * مِما يُكابد مِنكَ القَلب وَالرُوح
هَدى بِجَنبيكَ مَذبوح يَحف بِهِ * في عالم الصَدر قَلب مِنكَ مَذبوح
مَضى بِكَ العَقل لَم تَسعَد بِهِ أَثَراً * وَاِعتادَكَ الشَك إِذ ضاقَت بِكَ السوح
وَظَللت في الأَرض مَأخوذ فَلا ظَفرت * بِكَ الدِيار وَلا اِستَولى بِكَ اللوح
معلقاً في يَد الأَيام مطرحاً * في هامش الغَيب لا عِيسى وَلا نوح
وَدَعت أَمس يَقيني في مودأة * غَبراء تَعصف في أَعماقِها الريح
تَكَسَرَت شَمس دُنيا القَلب وَاِنطَفَأَت * في عالم الروح نَفسي المَصابيح
وَيَحي وَوَيح الهُدى المَقبور لَيسَ لَهُ * رَجعي وَقَد أَوغَلت في التَباريح

المبحث الثالث

الطلاسم - إيليا

. توضيح:

ارتبط مصطلح الطلسم أو طلاسم بأعمال السحر والشعوزة والدجل، أو بكل ما هو مبهم وغير واضح

٢٣/ موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول ٢٠٠٩م.

المعالم..، وتتكون معظم الطلاسم والتمائِم من قطع الحجارة أو الحلقات المنقوشة بالرموز السحرية، وفي ظني أن اختيار إيليا لعنوان "الطلاسم" لقصيدته جاء من هذا الباب، أي أنه استهدف الأشياء الشديدة الغموض في هذا الكون، وثمة ملاحظة أخرى وهي، إن الإنسان حين يستغرقه التفكير تراه يقطب جبينه للدلالة على عمق التفكر والتأمل. وقد جاء في المعجم عن معنى طلسم: طَلْسَمَ الرجلُ: كَرَّه وجْهَه وقَطَّبَه، وكذلك طَلْمَسَ وطَرْمَسَ٢٤. ولعل أصدق وصف لحالة إيليا هو ما قاله طه حسين: "الإنسان أشقى هذه الكائنات لأنه مفكر، ولأن تفكيره يضطره إلى ألوان من الآلام ...، فهو يضطره إلى الشك، ويلبس الأمر عليه فيورطه في الحيرة وآلامها"٢٥.

. قصيدة الطلاسم:

من أكثر ما يجذب الإنتباه ويلفت النظر في هذه القصيدة، بخلاف العنوان، هو الاستخدام المكثف لأدوات الاستفهام والجمل الاستفهامية التي تتزاحم مع كثافة الأسئلة التي لا تجد لها إجابة سوى تكرار التعبير الثابت (لست أدري):

جِئتُ لا أَعلَمُ مِن أَين وَلَكِنّي أَتَيتُ * وَلَقَد أَبصَرتُ قُدّامي طَريقاً فَمَشَيتُ
وَسَأَبقى ماشِياً إِن شِئتُ هَذا أَم أَبَيتُ * كَيفَ جِئتُ كَيفَ أَبصَرتُ طَريقي لَستُ أَدري

الأمر الذي يدلل بل ويؤكد على شدة الحيرة وعدم الثقة التي تكتنف عقل الشاعر، وكأن حاله تحكي حال المعري؛ حيث يقول:

أثبت لي خالقًا حكيمًا * ولست من معشر ثقاة٢٦

فهو لا يدري من أين أتى ولا أين سيذهب وما مصيره، وهو يسير مسلوب الإرادة ولا يملك من أمر نفسه شيئا، والأبيات التالية تعبر، بوضوح، عن الشعور النفسي المؤلم الذي يكابده الشاعر وهذا السيل من الأسئلة المندفع بشدة والمتدافع بقوة دون أن يملك له ردًا أو دفعا:

أَجَديدٌ أَم قَديمٌ أَنا في هَذا الوُجود * هَل أَنا حُرٌّ طَليقٌ أَم أَسيرٌ في قُيود
هَل أَنا قائِدُ نَفسي في حَياتي أَم مَقود * أَتَمَنّى أَنَّني أَدري وَلَكِن لَستُ أَدري
وَطَريقي ما طَريقي أَطَويلٌ أَم قَصير * هَل أَنا أَصعَدُ أَم أَهبِطُ فيه وَأَغور
أَأَنا السائِرُ في الدَربِ أَمِ الدَربُ يَسير * أَم كِلانا واقِف وَالدَهرِ يَجري لَستُ أَدري
لَيتَ شِعري وَأَنا في عالَمِ الغَيبِ الأَمين * أَتَراني كُنتُ أَدري أَنَّني فيهِ دَفين
وَبِأَنّي سَوفَ أَبدو وَبِأَنّي سَأَكون * أَمتَراني كُنتُ لا أُدرِكُ شَيئاً لَستُ أَدري
أَتُراني قَبلَما أَصبَحتُ إِنساناً سَوِيّاً * أَتُراني كُنتُ مَحواً أَم تُراني كُنتُ شَيّا

ويعبر إيليا عن مشاعر الآلام النفسية التي تتناوشه بقوة، حيث تتردد، في النفس، أصداء عدم القدرة على الحصول على أي إجابة لذلك السيل المنهمر، بلا حواجز ولا سدود، من التساؤلات؛ فيقول:

أَلِهَذا اللُغزُ حَلٌّ أَم سَيَبقى أَبَدِيّا * لَستُ أَدري وَلِماذا لَستُ أَدري لَستُ أَدري

يمثل البحر عند الأدباء، لاسيما الروائيين، القوة والعظمة كما في رواية الكاتب الأمريكي آرنست همنجوي "العجوز والبحر"، أو الغموض كما في رواية "موسم الهجرة" للكاتب السوداني أطيب صالح٢٧. ونجد إيليا، عندما يعجز عقله عن الإجابة ويضيق صدره بتلك الأمواج العاتية من التساؤلات، يتوجه إلى

٢٤/ ابن منظور: لسان العرب، مادة (ط. ل. س. م)
٢٥/ طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، ص:٤٠، دار المعارف (مصر) ١٩٨١م.
٢٦/ أبو العلاء المعري: اللزوميات، ص: ٣٤٣.
٢٧/ الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، ٢٨٩.

الطبيعة فيختار أعظمها مساحة وأضخمها جسمًا، في هذ الوجود ليقف أمامه، في خشوع، ويسترسل في تأملاته ومناجاته له؛ لعله يجد السلوى في تلك المناجاة أو لعل البحر، ذلك الجبار، بعظمته يسعفه بما يسري عن نفسه تلك الهموم ويبدد عنه ظلمات تلك الغيوم المتلبدة من الشكوك والظنون:

قَد سَأَلتُ البَحرَ يَوماً هَل أَنا يا بَحرُ مِنكا * هَل صَحيحٌ ما رَواهُ بَعضُهُبُم عَنّي وَعَنكا

أَم تُرى ما زَعَموا زورا وَبُهتانا وَإِفكا * ضَحِكَت أَمواجُهُ مِنّي وَقالَت لَستُ أَدري

أَيُّها البَحرُ أَتَدري كَم مَضَت أَلفٌ عَلَيكا * وَهَلِ الشاطِئُ يَدري أَنَّهُ جاثٍ لَدَيكا

وَهَلِ الأَنهارُ تَدري أَنَّها مِنكَ إِلَيكا * ما الَّذي الأَمواجُ قالَت حينَ ثارَت لَستُ أَدري

ويرى إيليا أن البحر، بكل تلك المهابة وذلك الجبروت الفخم، أسير مثله ولا يملك من أمر نفسه شيئًا؛ وبذا فقد تساوى هذا الجبار الكبير معه وهو، بالمقارنة مع البحر، صغير وحقير ولا يكاد يساوي سوى قلامة ظفر مع ما في بطن هذا المارد المتمرد، ولكنه أمام طغيان الطبيعة وسيطرتها لا حيلة له أزائها:

أَنتَ يا بَحرُ أَسيرٌ آهِ ما أَعظَمَ أَسرَك * أَنتَ مِثلي أَيُّها الجَبّارُ لا تَملِكُ أَمرَك

أَشبَهَت حالُكَ حالي وَحَكى عُذرِيَ عُذرَك * فَمَتى أَنجو مِنَ الأَسر وَتَنجو لَستُ أَدري

وعندما لا تتلقى أذناه سوى الصدى من أمواج البحر إجابة عن أسئلته المتتالية؛ يتوجه إلى مظاهر الوجود الأخرى لعله يجد لديها السلوى فيناجي السحب في السماء، والأشجار في الفضاء، والدر في أعناق الحسان، ولكن لا مجيب:

قَد سَأَلتُ السُحبَ في الآفاقِ هَل تَذكُرُ رَملَك * وَسَأَلتُ الشَجَرَ المورِقَ هَل يَعرِفُ فَضلَك

وَسَأَلتُ الدُرَّ في الأَعناقِ هَل تَذكُرُ أَصلَك * وَكَأَنّي خِلتُها قالَت جَميعاً لَستُ أَدري

يَرقُصُ المَوج وَفي قاعِكَ حَربٌ لَن تَزولا * تَخلُقُ الأَسماكَ لَكِن تَخلُقُ الحوتَ الأَكولا

قَد جَمَعتَ المَوتَ في صَدرِك وَالعَيشَ الجَميلا * لَيتَ شِعري أَنتَ مَهدٌ أَم ضَريحٌ لَستُ أَدري

وتتعالى نغمة الشك لدى إيليا وترتفع أصواتها المتعالية في نفسه حين يشك في مسألة البعث والنشور من بعد الموت، وهي ذروة الشكوك المودي إلى المهالك والتردي في لظى جهنم ولهيب نيرانها:

كَم مُلوكٍ ضَرَبوا حَولَكَ في اللَيلِ القِبابا * طَلَعَ الصُبح وَلَكِن لَم نَجِد إِلّا الضَبابا

أَلَهُم يا بَحرُ يَوماً رَجعَةٌ أَم لا مَآبا * أَم هُمُ في الرَملِ قالَ الرَملُ إِنّي لَستُ أَدري

يقول تعالى:

(وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ هود: ٧-٨.

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) سبأ:٢١.

(أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ) ص:٨.

بالرغم من أن البحر بلا عقل وهو يملك العقل إلا أنه يعيش في حيرة من أمره، كيف يمضي هو سريعًا ويغيبه الموت والفناء، وهو صاحب العقل، ويبقى البحر عبر الدهور المتطاولة والممتدة، وهو الذي لا عقل له؟؟ إن بحق شئ مثير للشك وأمر محير:

إِنَّما أَنتَ بِلا عَقل وَلي يا بَحرُ عَقلُ * فَلِماذا يا تُرى أَمضي وَتَبقى لَستُ أَدري

يرى إيليا أنه يحمل في داخله الكثير من الأسرار الغامضة والمحجوبة عنه وقد ضُرب عليها ستار يصعب

على العقل اختراقه:

إِنَّ في صَدري يا بَحرُ لَأَسراراً عِجابا * نَزَلَ السِترُ عَلَيها وَأَنا كُنتُ الحِجابا
وَلِذا اِزدادَ بُعداً كُلَّما اِزدَدتُ اِقتِرابا * وَأُراني كُلَّما أَوشَكتُ أَدري لَستُ أَدري
إِنَّني يا بَحرُ بَحرٌ شاطِئاهُ شاطِئاكا* الغَدُ المَجهول وَالأَمسُ اللَذانِ اِكتَنَفاكا
وَكِلانا قَطرَةٌ يا بَحرُ في هَذا وَذاكَ * لا تَسَلني ما غَدٌ ما أَمسُ إِنّي لَستُ أَدري

بعد أن يأس إيليا من أن يظفر ببغيته الإيمانية وحاجته اليقينية لدى تلك القوى الطبيعية البالغة العظمة والضخامة؛ تقاصرت هامته عن التطاول فعاد إلى فجاج الأرض يسلكها ويبحث فيها عن ضالته التي ينشد الظفر بها منذ سنوات طوال، وهو لا يزداد إلا شكًا على شكوكه وظنونه وأوهامه، فتوجه من حينه وساعته إلى المكان الذي ظن أنه سيجد فيه السلوى والعزاء، والسكينة النفسية والطمأنينة القلبية، حيث ستنتهي جميع هواجسه العقلية؛ فقصد الأديرة وهي صوامع الرهبان والعباد الذين يملكون مفاتيح المعرفة الإيمانية والتي ستسهم في فك شفرة طلاسمه التي أرهقته صعودا. فالنذهب معه ولنستمع إلى ما روته شفتاه وما رأته عيناه في جوف المعابد التي لم يجد فيها سوى عقول "آسنات"، وقلوب بالية:

قيلَ لي في الدَيرِ قَومٌ أَدرَكوا سِرَّ الحَياة * غَيرَ أَنّي لَم أَجِد غَيرَ عُقولٍ آسِنات
وَقُلوبٍ بَلِيَت فيها المُنى فَهيَ رُفات * ما أَنا أَعمى فَهَل غَيرِيَ أَعمى لَستُ أَدري
قيلَ أَدرى الناسِ بِالأَسرارِ سُكّانُ الصَوامِع * قُلتُ إِن صَحَّ الَّذي قالوا فَإِنَّ السِرَّ شائِع

فتعجب منها وسخر من سلوك لا يقبله العقل السوي والمنطق السليم:

عَجَباً كَيفَ تَرى الشَمسَ عُيونٌ في البَراقِع * وَالَّتي لَم تَتَبَرقَع لا تَراها لَستُ أَدري
إِن تَكُ العِزلَةُ نُسكا وَتُقىً فَالذِئبُ راهِب * وَعَرينُ اللَيثِ دَيرٌ حُبُّهُ فَرض وَواجِب
لَيتَ شِعري أَيُميتُ النُسكُ أَم يُحيِ المَواهِب * كَيفَ يَمحو النُسكُ إِثماً هوَ إِثمٌ لَستُ أَدري

إن المعاني المتضمنة في هذه الأبيات، وما بعدها، تدعم، وبقوة، ما ذهبنا إليه، من قبل، من رأي حول فلسفة التيجاني وقناعته الإيمانية الكامنة في أعماق النفس وحنايا الفؤاد، وليس الأمر ببعيد عن إيليا، فهو، أيضًا، لا يمكن لأحد أن يحكم عليه بالخروج من الملة، بالرغم مما اشتملت عليه هذه الأبيات من تهكم واستهزاء بالسلوك الديني لدى المؤتزرين بزي الدين والمتمظهرين به، فهم أكثر الناس شكًا ويتجلى ذلك في أحاديثهم وأقوالهم التي تملأ الفضائيات ومحطات الإزاعة والصحف والكتب وخطب الجمعة، إنها تنضح شكًا وتفيض بالشكوك، عن القدرة الإلهية؛ مما يعني أن صدورهم تمور شكًا وتشككًا في أمر مفروغ منه بالكلية، فكلمة إله أو لفظ ألوهية يعني الكمال والكمال المطلق اللا متناهي، وكفى بقوله تعالى، الذي لا معقب له، فهو القائل:

(عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الأنعام: ١٧.

وبذا يمكن القول بأن إيليا قد صب جام غضبه وسخريته على شخوص رجال الدين وليست على المعتقد الديني كمفهوم إيماني راسخ في عقل ووجدان إيليا، وهو لا يكاد يبتعد كثيرًا عن صنوه ورفيق دربه جبران٢٨.

إِنّي أَبصَرتُ في الدَيرِ وُروداً في سِياجِ * قَنِعتُ بَعدَ النَدى الطاهِرِ بِالماءِ الأَجاجِ
حَولَها النورُ الَّذي يَجيء وَتَرضى بِالدَياجي * أَمِنَ الحِكمَةِ قَتلُ القَلبِ صَبراً لَستُ أَدري

٢٨/ جبران خليل جبران: مناجاة أرواح، ص: ٦٢ وما بعدها، المكتبة الثقافية (بيروت).

قَد دَخَلتُ الدَيرَ عِندَ الفَجرِ كَالفَجرِ الطَروبِ * وَتَرَكتُ الدَيرَ عِندَ اللَيلِ كَاللَيلِ الغَضوب
كانَ في نَفسِيَ كَربٌ صارَ في نَفسي كُروب * أَمِنَ الدَيرِ أَمِ اللَيلِ اِكتِئابي لَستُ أَدري
قَد دَخَلتُ الدَيرَ أَستَنطِقُ فيهِ الناسِكينا * فَإِذا القَومُ مِنَ الحَيرَةِ مِثلي باهِتونا
غَلَبَ اليَأسُ عَلَيهِم فَهُم مُستَسلِمونا * وَإِذا بِالبابِ مَكتوبٌ عَلَيهِ لَستُ أَدري
عَجَباً لِلناسِكِ القانِت وَهوَ اللَوذَعي * هَجَرَ الناس وَفيهِم كُلُّ حُسنِ المُبدِعِ
وَغَدا يَبحَثُ عَنهُ في المَكانِ البَلقَعِ * أَرَأى في القَفرِ ماءً أَم سَرابا لَستُ أَدري
كَم تُماري أَيُّها الناسِكُ في الحَقِّ الصَريح * لَو أَرادَ اللَهَ أَن لا تَعشَقَ الشَيءَ المَليح
كانَ إِذ سَوّاكَ سَوّاكَ بِلا عَقل وَروح * فَالَّذي تَفعَلُ إِثمٌ قالَ إِنّي لَستُ أَدري
أَيُّها الهارِبُ إِنَّ العارَ في هَذا الفِرارِ * لا صَلاحٌ في الَّذي تَفعَلُ حَتّى لِلقِفارِ
أَنتَ جانٍ أَيُّ جانٍ قاطِلٌ في غَيرِ ثارِ * أَفَيَرضى اللَهُ عَن هَذا وَيَعفو لَستُ أَدري

ذهب إيليا إلى تلك الأديرة والصوامع يستجديها لعله يجد لديها حلاً يريحه من تلك الطلاسم الجاثمة على صدره، ولكنها، للأسف، لم تجد نفعًا ولم تزده إلا حيرة على ما هو فيه من الحيرة والشك، فقد دخله وفي قلبه كرب فما الذي وجده بعد خروجه منها؟؟:

قَد دَخَلتُ الدَيرَ عِندَ الفَجرِ كَالفَجرِ الطَروبِ * وَتَرَكتُ الدَيرَ عِندَ اللَيلِ كَاللَيلِ الغَضوب
كانَ في نَفسِيَ كَربٌ صارَ في نَفسي كُروب * أَمِنَ الدَيرِ أَمِ اللَيلِ اِكتِئابي لَستُ أَدري

يدع إيليا تلك المعابد الخربة، وإن توشحت بأزهى أثواب الحسن والجمال الحجري وتدثرت بكل ألون الحلي وأبهاها، إلا أنها خربة وخاوية من الحقيقة الإيمانية النورانية المشرقة بضيائها على الكون بكمالها وجلالها الإلهي الأسما٢٩. ويودعها متوجهًا بحيرته تلك إلى مراقد الأموات ومدافنهم، يقف عليهم ويسائلهم عساها ترأف بحاله وتجيب عن سؤاله:

وَلَقَد قُلتُ لِنَفسي وَأَنا بَينَ المَقابِر * هَل رَأَيتِ الأَمن وَالراحَةَ إِلّا في الحَفائِر
فَأَشارَت فَإِذا لِلدودِ عَيثٌ في المَحاجِر * ثُمَّ قالَت أَيُّها السائِلُ إِنّي لَستُ أَدري
أُنظُري كَيفَ تَساوى الكُلُّ في هَذا المَكانِ * وَتَلاشى في بَقايا العَبدِ رَبُّ الصَولَجانِ
وَالتَقى العاشِق وَالقالي فَما يَفتَرِقانِ * أَفَهَذا مُنتَهى العَدلِ فَقالَت لَستُ أَدري
إِن يَكُ المَوتُ قِصاصاً أَيُّ ذَنبٍ لِلطَهارَه * وَإِذا كانَ ثَواباً أَيُّ فَضلٍ لِلدَعارَه
وَإِذا كان وَما فيهِ جَزاءٌ أَو خَسارَه * دَلِمَ الأَسماءُ إِثمٌ أَو صَلاحٌ لَستُ أَدري
أَيُّها القَبرُ تَكَلَّم وَاِخبِريني يا رِمام * هَل طَوى أَحلامَكَ المَوت وَهَل ماتَ الغَرام

يقول طه حسين: "ولم يكن أبو العلاء يحرص على شئ كما كان يحرص على ينشر ميت من الموتى فينبئه وينبئ الناس بما وراء الموت. ولم يظفر أبو العلاء بما لم يظفر به غيره. فظل في حيرة كما كان الذين جحدوا البعث من قبله"٣٠.

لم أدر كيف غاب عن فطنة طه حسين وذكائه، وهو الذكي الألمعي وصاحب الذهن المتقد ذكاءً وعقلاً، أن هناك من بعث من بعد الموت وعاد للحياة وعاش فيها إلى أن استوفى أجله المكتوب، والشواهد على ذلك ليست بالقليلة، وهي مستنبطة من آي القرآن العظيم، الذي استظهره طه منذ صغره، فلا مجال للشك في مصداقيتها. ولكن هذه الهنة قد لا تمثل أكثر من قطرة في بحار علم طه حسين الزاخرة

٢٩/ جبران خليل جبران: عرائس المروج، ص: ٥٢ وما بعدها، المكتبة الثقافية (بيروت).
٣٠/ طه حسين: مع أبي العلاء في سجنه، ص:٣٥، دار المعارف (مصر) ١٩٨١م.

بالمعارف٣١. على كل حال فإن الذين آبوا من الموت لم يخبروا بشئ يمكنه أن يبدد حيرة الحائرين أو يزيل شك المتشككين، إن الموت هو اللحظة الوحيدة التي يستوي فيها الجميع، بلا استثناء، فهم سواسية من حيث المكان واستواء الزمان الذي في علم الخالق المقتدر:

أُنظُري كَيفَ تَساوى الكُلُّ في هَذا المَكانِ * وَتَلاشى في بَقايا العَبدِ رَبُّ الصَولَجان

***

مَن هُوَ المائِتُ مِن عام وَمِن مِليونِ عام * أَيَصيرُ الوَقتُ في الأَرماسِ مَحواً لَستُ أَدري

إِن يَكُ المَوتُ رُقاداً بَعدَهُ صَحوٌ طَويل * فَلِماذا لَيسَ يَبقى صَحوُنا هَذا الجَميلِ

وَلِماذا المَرءُ لا يَدري مَتى وَقتُ الرَحيل* وَمَتى يَنكَشِفُ السِرُّ فَيَدري لَستُ أَدري

لا يكتفي إيليا بالتساؤل والحيرة والشكوك في هذه الدنيا، التي من المؤكد أن مصيرها هو الفناء والانتهاء، ولكن هل من عودة أو رجعة إلى الحياة الجسدية؟؟، أي هل هناك بعث للروح ونشور للأجساد بعد الموت والبلى والفناء الجسدي؟؟. هنا، وفي هذه اللحظة تعود نغمة الشك التي لم تنفك يتردد صداها في جنبات النفس عند إيليا، ومنذ البيت الأول في هذه القصيدة. وقضية البعث والنشور بعد الموت من أعقد القضايا الفكرية والفلسفية التي استعصى على العقل البشري قبولها والتوافق معها؛ الأمر الذي جعل الكثير من الناس، ومن بينهم فلاسفة وعلماء بل وحتى الفقهاء أنفسهم، تجدهم يضطربون في مسألة المصير والمآل ما بعد الموت؛ لذلك تكرر في آي القرآن العظيم الكثير من الآيات التي تؤكد، على ما تضطرب فيه النفوس، من أمر البعث والنشور الروحي والجسدي؛ يقول تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) الروم: ٥٦.

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) يونس: ٥١-٥٣.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) المطففين: ٨-١٢.

(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) المؤمنون: ١٥-١٦.

والآن، وبعد كل تلك التأكيدات المؤكدة على البعث، يعود إيليا من جديد إلى تكرار رنة التشكك في قضية البعث والنشور، كدليل وبرهان على أن أكبر هواجس إيليا وتشككاته كانت تدور في فلك العودة إلى الحياة بعد الموت، وهذه الأبيات تنضح وتضج بما لا قبل لإيليا بكتمانه من بواعث الشك وهواجس الظنون التي لا تفتأ تتوارد وتتوالى على عقل إيليا ولا يملك لها دفعا:

أَوراءَ القَبرِ بَعدَ المَوتِ بَعث وَنُشورُ * فَحَياةٌ فَخُلودُ أَم فَناء وَدُثورُ

أَكَلامُ الناسِ صِدقٌ أَم كَلامُ الناسِ زورُ * أَصَحيحٌ أَنَّ بَعضَ النصاسِ يَدري لَستُ أَدري

إِن أَكُن أُبعَثُ بَعدَ المَوتِ جُثمانا وَعَقلاً * أَتَرى أُبعَثُ بَعضاً أَم تُرى أُبعَثُ كُلّاً

أَتُرى أُبعَثُ طِفلاً أَم تُرى أُبعَثُ كَهلاً * ثُمَّ هَل أَعرِفُ بَعدَ المَوتِ ذاتي لَستُ أَدري

يا صَديقي لا تُعَلِّلني بِتَمزيقِ السُتورِ * بَعدَما أَقضي فَعَقلي لا يُبالي بِالقُشورِ

٣١/ نسبة لضيق مساحة البحث يمكن مراجعة تفاسير الآيات التالية: ٥٥-٥٦، ٧٢-٧٣، ٢٤٣، ٢٥٩، ٢٦٠ من سورة البقرة، والآية: ١١٠ سورة المائدة.

إِن أَكُن في حالَةِ الإِدراكِ لا أَدري مَصيري* كَيفَ أَدري بَعدَما أَفقِدُ رُشدي لَستُ أَدري

في الأبيات، التالية، ينتقل إيليا إلى الحديث عن البلى والخراب الذي سيعتري شوامخ الأبنية التي شادها ويشيدها الناس ليكون مصيرها، مهما طال بها الأمد، هو الدمار؛ لأن الزمان لابد وأن سيسحب عليها ذيول الفناء، ويستوي في ذلك القصر المنيف والكوخ الزري الحقير، إذًا فلا حاجة للبناء طالما أن مصير ما نشيده هو الخراب، ولا تزال روح إيليا ترواح مكانها وتدور في حلقة مفرغة من رحلة الشك والعذاب الروحي والقلق النفسي، لا لشئ إلا لأنه لم يستطع أن يحزم أمره ويحدد مصيره؛ ليقضي على صراعاته الداخلية واذدواج الشخصية الذي يعاني مراراته وآلامه، وينهي رحلة الذهاب والإياب بين الشك واليقين؛ فتتحرر روحه من رق العبودية الذي يطوق عنقه ويكبل حركته:

سَحَبَ الدَهرُ عَلَيها ذَيلَهُ فَهيَ رُسوم * ما لَنا نَبني وَما نَبني لِهَدمٍ لَستُ أَدري

لَم أَجِد في القَصرِ شَيئاً لَيسَ في الكوخِ المَهينِ * أَنا في هَذا وَهَذا عَبدُ شَك وَيَقينِ

إِنَّني أَشهَدُ في نَفسي صِراعا وَعِراكا * وَأَرى ذاتِيَ شَيطانا وَأَحياناً مَلاكا

هَل أَنا شَخصانِ يَأبى هَذا مَع ذاكَ اِشتِراكا * أَم تُراني واهِماً فيما أَراهُ لَستُ أَدري

بَينَما قَلبِيَ يَحكي في الضُحى إِحدى الخَمائِل* فيهِ أَزهار وَأَطيارٌ تُغَنّي وَجَداوِل

أَقبَلَ العَصرُ فَأَمسى موحِشاً كَالقَفرِ قاحِل * كَيفَ صارَ القَلبُ رَوضاً ثُمَّ قَفراً لَستُ أَدري

في هذه الأبيات يتجلى حجم المعاناة النفسية التي قاسى آلامها إيليا، فهو تارة يستجدي الماضي البعيد وأيام الطفولة وبراءتها، وفجأة وبلا مقدمات ينطلق إلى دنيا الأحلام وآفاق المستقبل التي لم تعد سوى سراب وآمال بعيدة المنال بعد أن تسربت من بين يديه، ثم يعود ويتذكر أنه لم يزل مؤمنًا ولكنه إيمان لا يشبه ما كان عليه في الماضي، فهو متذبذب وسريع التبدل والتنقل من حال إلى حال ومن شأن إلى شأن ..، كل ذلك يجري أمام ناظريه ويحدث تحت سمعه وبصره فساءل نفسه عن الأسباب فأجابته، الإجابة المعتادة، "لست أدري":

أَينَ ضِحكي وَبُكائي وَأَنا طِفلٌ صَغير * أَينَ جَهلي وَمَراحي وَأَنا غَضٌّ غَرير

أَينَ أَحلامي وَكانَت كَيفَما سِرتُ تَسير * كُلَّها ضاعَت وَلَكِن كَيفَ ضاعَت لَستُ أَدري

لِيَ إيمان وَلَكِن لا كَئيماني وَنُسكي * إِنَّني أَبكي وَلَكِن لا كَما قَد كُنتُ أَبكي

وَأَنا أَضحَكُ أَحيانا وَلَكِن أَيَّ ضِحكِ * لَيتَ شِعري ما الَّذي بَدَّلَ أَمري لَستُ أَدري

كُلَّ يَومٍ لِيَ شَأنٌ كُلَّ حينٍ لي شُعور * هَل أَنا اليَومَ أَنا مُنذُ لَيال وَشُهور

أَم أَنا عِندَ غُروبِ الشَمسِ غَيري في البُكور * كُلَّما ساءَلتُ نَفسي جاوَبَتني لَستُ أَدري

أرأيت كيف كان حائرًا ضالاً في هذه الحيرة، شاعرًا أقوى الشعور وأشده بما هو فيه من جور عن القصد وضلال عن السراط المستقيم، سائلاً نفسه في غير طائل، سائلاً الناس في غير غناء، سائلاً نجوم السماء وحيوان الأرض وجمادها، دون أن يظفر منها بجواب٣٢.

وتشتعل نيران الشك في صدر إيليا ويضطرم لهيبها في فؤاده حين يزداد عقله حيرة على حيرته التي لا يكاد يرى لها من نهاية، فها هي المتناقضات تتراقص أمام ناظريه وتتقافذ في جنون يكاد يملأ كل جوانحه وجميع جوانب نفسه، فها هو الآن يشتهي ما كان يعرض عنه ويتقيه من قبل وهو بين يديه، وكذلك تداخلت لديه الأمور وتشابكت فلا يرى ما بين يديه حتى يدعه ويبتعد عنه، دون أن يدري لذلك منطقًا وجيهًا وسببًا معقولاً:

٣٢/ طه حسين: مع المعري في سجنه، ص:٤٧، دار المعارف(مصر) ١٩٨١م.

رُبَّ أَمرٍ كُنتُ لَمّا كانَ عِندي أَتَّقيهِ * بِتُّ لَمّا غابَ عَنّي وَتَوارى أَشتَهيهِ
ما الَّذي حَبَّبَهُ عِندي وَما بَغَّضَنيهِ * أَأَنا الشَخصُ الَّذي أَعرَضَ عَنهُ لَستُ أَدري
رُبَّ شَخصٍ عُشتُ مَعهُ زَمَناً أَلهو وَأَمرَح * أَو مَكانٍ مَرَّ دَهر وَهوَ لي مَسرى وَمَسرَح
لاحَ لي في البُعدِ أَجلى مِنهُ في القُربِ وَأَوضَح * كَيفَ يَبقى رَسمُ شَيءٍ قَد تَوارى لَستُ أَدري

وترتفع نبرات الشك وحدتها حتى تكات تبلغ مرحلة الإعتراض على القضاء والقدر، هذا إن لم تكن قد بلغتها يقينًا، في هذه الشطرة التي تشير إلى أن الأطيار تعيث فسادًا في بستانه الذي بذل الكثير من الجهد لحماية أشجاره وأزهاره من أيدي العابثين والمتطفلين:

رُبَّ بُستانٍ قَضَيتُ العُمرَ أَحمي شَجَرَه * وَمَنعتُ الناسَ أَن تَقطِفَ مِنهُ زَهرَه
جاءَتِ الأَطيارُ في الفَجرِ فَناشَت ثَمَرَه * أَلِأَطيارِ السَما البُستانُ أَم لي لَستُ أَدري

وفيما يلي يجمع إيليا متناقضات ثلاثة: القبح والحسن والوهم دون أن يدري أين تكمن الحقيقة وأيهم، من بين الثلاثة: زيد وبكر وعمرو، هو الذي على حق في ما يدعيه؟، كذلك ثمة أمور لا يدري لها اتفاقًا وهي نسيان الحسن والعيب، وانتظار الفجر والغروب، وذهاب وإياب الخير والشر، وهو لا يدري كيف يمكن الجمع بين كل هذه المتناقضات؟، والإجابة، في مجيع الأحوال، هي (لست أدري):

رُبَّ قُبحٍ عِندَ زَيدٍ هُوَ حُسنٌ عِندَ بَكرِ* فَهُما ضِدّانِ فيه وَهو وَهمٌ عِندَ عَمرِ
فَمَنِ الصادِقُ فيما يَدَّعيهِ لَيتَ شِعري * وَلِماذا لَيسَ لِلحُسنِ قِياسٌ لَستُ أَدري
قَد رَأَيتُ الحُسنَ يُنسى مِثلَما تُنسى العُيوبُ * وَطُلوعُ الشَمسِ يُرجى مِثلَما يُرجى الغُروبُ
وَرَأَيتُ الشَرَّ مِثلَ الخَيرِ يَمضي وَيَأوبُ * فَلِماذا أَحسَبُ الشَرَّ دَخيلاً لَستُ أَدري

يرى إيليا أن الغيث يهطل، حين يهطل، وهو مكره وكذلك رائحة العطر تفوح رغمًا عنها كما أن الأرض لا تملك أن تنبت الأزهار أو الأشواك بحر إرادتها، وليس هذا وحسب بل إن هذه الأشواك والزهور ليس لها من الأمر شئ فقد تزين الملوك الأنبياء وربما شارتكهم اللصوص والباغايا، كذلك ربما كان في الشوك حماية له من المخاطر بينما يكمن السم في أريج الأزاهر، وبالرغم من أن الأفضلية تكون للورود بحسب الأعراف والقوانين؛ إلا أن إيليا يرى أن جميع تلكم القوانين باطلة بل وظالمة أيضًا. وبعد ذلك؛ يمد إيليا ناظريه، باحثًا عن الحقيقة لدى كل من، الشهب، في إشراقها، والسحب، في أنوائها، والغاب في إخضرارها، فيجدها، مثله جهلاً، فجميعها لا تدري لماذا تفعل ما تفعله؟ ولماذا تقوم بما تقوم به من نشاط؟:

إِنَّ هَذا الغَيثَ يَهمي حينَ يَهمي مُكرَها * وَزُهورُ الأَرضِ تُفشي مُجبَراتٍ عِطرَها
لا تَطيقُ الأَرضُ تَخفي شَوكَها أَو زَهرَها * لا تَسَل أَيَّهُما أَشهى وَأَبهى لَستُ أَدري
قَد يَصيرُ الشَيكُ إِكليلاً لِلمَلكِ أَو نَبي * وَيَصيرُ الوَردُ في عُروَةِ لِصٍّ أَو بَغي
أَيَغارُ الشَوكُ في الحَقلِ مِنَ الزَهرِ الجَني * أَم تُرى يَحسَبُهُ أَحقَرَ مِنهُ لَستُ أَدري
قَد يَقيني الخَطَرَ الشَوكُ الَّذي يَجرَحُ كَفّي * وَيَكونُ السُمُّ في العِطرِ الَّذي يَملَءُ أَنفي
إِنَّما الوَردُ هُوَ الأَفضَلُ في شَرعي وَعُرفي * وَهوَ شَرٌّ كُلُّهُ ظُلم وَلَكِن لَستُ أَدري
قَد رَأَيتُ الشُهبَ لا تَدري لِماذا تُشرِقُ * وَرَأَيتُ السُحبَ لا تَدري لِماذا تُغدِقُ
وَرَأَيتُ الغابَ لا تَدري لِماذا تورِقُ * فَلِماذا كُلُّها في الجَهلِ مِثلي لَستُ أَدري

وما يكاد، إيليا، يدرك أنه قد تمكن من فك شفرة السر وحل رموز ذلكم اللغز اللشديد اللبس والغموض حتى يجد نفسه قد قبض السراب ولا شئ في يديه غير حفنة من الريح، فلا يملك إلا أن يتساءل، أفي

الجهل نعيم أم جحيم؟ فيستمع إلى الإجابة المخيبة للآمال، آتية من ظلمات السكون، مرددة (لست أدري):

كُلَّما أَيقَنتُ أَنّي قَد أَمَطتُ السِترَ عَنّي * وَبَلَغتُ السِرَّ سِرّي ضَحِكَت نَفسِيَ مِنّي
قَد وَجَدتُ اليَأس وَالحَيرَةَ لَكِن لَم أَجِدني * فَهَلِ الجَهلُ نَعيمٌ أَم جَحيمٌ لَستُ أَدري

ويتمكن اليأس من نفس إيليا ويسيطر الكثير من القنوط القاتل على خلجات عقله يأسًا من العثور على إجابة تريح ذهنه من الجهد والكد في أثرها، عندها يلجأ إلى مخاطبة الطبيعة ومناجاتها؛ لعله يجد بصيصًا من الأمل والرجاء لدى، تغريد البلابل وحفيف الأوراق ونجوم السماء، دون أن يدري مصدرًا لشعور اللذة الذي يحتويه، أهو منه أو منها؟، ويعتريه شعور بأنه كان، من قبل، نغمًا في وتر أو موجة في نهر أو ربما كان من الأنجم الزهر أو عطرًا أو حفيفًا، فهو حينًا كابحر مملوءًا أصدافًا ورملا ولآلئ وتارة هو أرض تغمرها المروج وتعلوها الجبال أو أنه السماء المرصعة بالنجوم والملبدة بالغيوم، فيتساءل من هو من بين هذه الأشياء الثلاثة، أهو البحر أم هو الأرض أم أنه السماء؟، ولا شئ غير الحيرة والشك (لست أدري):

لَذَّةٌ عِندِيَ أَن أَسمَعَ تَغريدَ البَلابِل * وَحَفيفَ الوَرَقِ الأَخضَرِ أَو هَمسَ الجَداوِل
وَأَرى الأَنجُمَ في الظَلماءِ تَبدو كَالمَشاعِل * أَتُرى مِنها أَمِ اللَذَّةُ مِنّي لَستُ أَدري
أَتُراني كُنتُ يَوماً نَغَماً في وَتَرِ * أَم تُراني كُنتُ قَبلاً مَوجَةً في نَهرِ
أَم تُراني كُنتُ في إِحدى النُجومِ الزُهرِ * أَم أَريجاً أَم حَفيفاً لَستُ أَدري
فِيَّ مِثلُ البَحرِ أَصداف وَرَمل وَلَآل* فِيَّ كَالأَرضِ مُروج وَسُفوح وَجِبال
فِيَّ كَاجَوِّ نُجوم وَغُيوم وَظِلال * هَل أَنا بَحر وَأَرض وَسَماءٌ لَستُ أَدري

لا يرى إيليا أنه يفضل الكائنات الأخر، في هذه الحياة، فهو يتناول الشهد والخمر والماء ... وغيرها من الأطعمة التي تتلاشى في جسده كما أنه يطرح من جسمه أجزاءًا تتلاشى في الكائنات الأخرى؛ لذلك يصبح عرضة للأهواء والظنون وتعتريه الريبة والشكوك حول فصاحته التي يفوق فيها الطيور عذوبة وطيب الزهر وشذاه، والحية دهاءً والنملة غرابة، وتتنازعه الأفكار الوسواسية وتحكم الحيرة سيطرتها على عقله وخياله، بعد أن أدرك أن جميع تلك الكائنات، مثله، تأكل وتشرب وتحيا وتموت ولها يقظة ورقاد وحديث وصمت فبما، إذًا، امتاز عنها وما الذي جعله يتميز دونها؟، لاسيما وأن الجميع سائرون وصائرون إلى المجهول:

مِن شَرابي الشَهد وَالخَمرَة وَالماءُ الزُلال * مِن طَعامي البَقل وَالأَثمار وَاللَحمُ الحَلال
كَم كِيانٍ قَد تَلاشى في كِياني وَاِستَحال * كَم كِيانٍ فيهِ شَيءٌ مِن كِياني لَستُ أَدري
أَأَنا أَفصَحُ مِن عُصفورَةِ الوادي وَأَعذَب * وَمِنَ الزَهرَةِ أَشهى وَشَذى الزَهرَةِ أَطيَب
وَمِنَ الحَيَّةِ أَدهى وَمِنَ النَملَةِ أَغرَب * أَم أَنا أَوضَعُ مِن هَذي وَأَدنى لَستُ أَدري
كُلُّها مِثلِيَ تَحيا كُلُّها مِثلي تَموتُ * وَلَها مِثلي شَراب وَلَها مِثلِيَ قوتُ
وَاِنتِباه وَرُقاد وَحَديث وَسُكوتُ * فَبِما أَمتازُ عَنها لَيتَ شِعري لَستُ أَدري
قَد رَأَيتُ النَملَ يَسعى مِثلَما أَسعى لِرِزقي * وَلَهُ في العَيشِ أَوطار وَحَقٌّ مِثلُ حَقّي
قَد تَصاوى صَمتُهُ في نَظَرِ الدَهر وَنُطقي * فَكِلانا صائِرٌ يَوماً إِلى ما لَستُ أَدري

إن ثمة تشابه يجمع بين الإنسان وبين الصهباء (الخمر)، فكلاهما، عند إيليا، مجهول أصله القديم، وكلاهما في الطين محبوس، يقول جبران: "فإني مقيد بالسلاسل الحديدية، ...، تفصلني عنك هذه

الحواجز المصنوعة من اللحم والعظم"٣٣. ويحاول إيليا أن يبحث عن أصل لتلك الخمرة فلا يجده، فيشبهها بأفكاره تارة وبالنور تارة وبالأمل المنبعث من صدره أو بالدم الذي يسري في شرايينه وأوردته وعروقه. ولكنه غير متيقن من كل تلك التصورات والتخيلات التي تعتريه في كل لحظة وفي كل حين:

أَنا كَالصَهباءِ لَكِن أَنا صَهبائي وَدَنّي * أَصلُها خافٍ كَأَصلي سِجنُها طينٌ كَسِجني
وَيُزاحُ الخَتمُ عَنها مِثلَما يَنشَقُّ عَنّي * وَهيَ لا تَفقَهُ مَعناها وَإِنّي لَستُ أَدري
غَلِطَ القائِلُ إِنَّ الخَمرَ بِنتُ الخابِيَه * فَهيَ قَبلَ الزِقِّ كانَت في عُروقِ الدالِيَه
وَحَواها قَبلَ رَحمِ الكَرمِ رَحمُ الغادِيَه * إِنَّما مِن قَبلِ هَذا أَينَ كانَت لَستُ أَدري
هِيَ في رَأسِيَ فِكر وَهِيَ في عَينَيَّ نورُ * وَهِيَ في صَدرِيَ آمال وَفي قَلبي شُعورُ
وَهِيَ في جِسمي دَمٌ يَسري فيه وَيَمورُ * إِنَّما مِن قَبلِ هَذا كَيفَ كانَت لَستُ أَدري

ويختم إيليا، طلاسمه، كما بدءها، بذات الطلاسم دون أن يستقر على حال أو أن يقر له قرار، فلا هو يعرف ماضيه الذي قدم منه، ولا هو يدرك مصيره ولا إلى أين مآله في المستقبل البعيد عن ناظريه بعد أن تلفه يد المنون حين يغدو تحت الثرى:

أَنا لا أَذكُرُ شَيئاً مِن حَياتي الماضِيَه * أَنا لا أَعرِفُ شَيئاً مِن حَياتي الآتِيَه
لِيَ ذاتٌ غَيرَ أَنّي لَستُ أَدري ماهِيَه * فَمَتى تَعرِفُ ذاتي كُنَهُ ذاتي لَستُ أَدري
إِنَّني جِئت وَأَمضي وَأَنا لا أَعلَمُ * أَنا لُغز وَذَهابي كَمَجيئي طَلسَمُ
وَالَّذي أَوجَدَ هَذا اللُغزَ لُغزٌ مُبهَمُ * لا تُجادِل ذا الحِجا مَن قالَ إِنّي لَستُ أَدري

المبحث الرابع

الكفر والإيمان من منظور أدبي

. توضيح:

في البدء لابد من الإشارة إلى أنه لا أحد، في الدنيا، يملك من الحق أن يكفر إنسانًا من الناس، أنى كانت توجهاته الفكرية والعقدية، ولسنا هنا في معرض الصاق التهم بالآخرين بقدر ما حرصت الدراسة على تقديم قالب أدبي من خلال المقارنة بين القصيدتين؛ يقول تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) الشعراء: ٢٢٥-٢٢٦.

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) يس: ٦٩.

. الشك واليقين عند المفكرين:

يعد الشِّعْرُ فنُّ العربية الأول، وأكثر فنون القول هيمنة على التاريخ الأدبي، خصوصًا في عصورها الأولى؛ لسهولة حفظه وتداوله، ويُعدُّ الشعر وثيقة يمكن الاعتماد عليها في التعرُّف على أحوال العرب ولغتهم وبيئاتهم وثقافتهم وتاريخهم ..، والشعر فن سحري في كل شئ منه؛ فأوزانه ومقاييسه ضرب من هذا السحر٣٤. وكفى بالشعر شرفًا أن يمثل ديوان العرب وفخر العربية وعزها الزاهي، يقول ويلسون٣٥: "هكذا اكتشف كل من المصريين واليونانيين والعرب اكتشافاتهم الخاصة ... ووضعت أسس الفن والشعر". والشعر٣٦؛ يقول ابو تمام:

٣٣/ جبران: السابق، ص: ٦٥، المكتبة الثقافية (بيروت).

٣٤/ ١٠. التيجاني يوسف بشير: الآثار النثرية الكاملة، ص: ٢٢،جمع وتحقيق: بكري بشير الكتيابي، مطابع راي (السودان) ١٩٧٨م.

٣٥/ كولون ويلسون: الجنس والشباب الذكي، ص: ٣٥، ترجمة: عمر شاهين، جماعة حور الثقافية، (مصر) ١٩٩٩م.

٣٦/ قدامة بن جعفر بن قدامة: نقد الشعر، ص: ٢٥.

تَدارَكهُ إِنَّ المَكرُماتِ أَصابِعٌ * وَإِنَّ حُلى الأَشعارِ فيها خَواتِمُ
إِذا أَنتَ لَم تَحفَظهُ لَم يَكُ بِدعَةً * وَلا عَجَباً أَن ضَيَّعَتهُ الأَعاجِمُ
فَقَد هَزَّ عِطفَيهِ القَريضُ تَوَقُّعاً * لِعَدلِكَ مُذ صارَت إِلَيكَ المَظالِمُ
وَلَولا خِلالٌ سَنَّها الشِعرُ ما دَرى * بُغاةُ النَدى مِن أَينَ تُؤتى المَكارِمُ

والشعر هو ضرب من ضروب الفنون الإبداعية التي تحتاج إلى ملكة العقل، والعقل مناط التكليف والتفكير والباعث على الشك أو اليقين. واليقين والطمأنينة القلبية، لا ريب، هما مفتاح كل خير، وأما الوساوس والشكوك فهي باب من أبواب الجحيم النفسي من ولج فيه سار في طريق معبد بالجمر؛ وكثير من ذوي الفكر والعقول تنكب هذا الدرب وطرق أبوابه دون تهيب أو وجل، لاسيما الشعراء منهم، وهم المعنيون هنا.

اتهم المعري بالزندقة والإلحاد من بعض معاصريه، ولا شك أنه كان يناقش في مجالسه قضايا الفلسفة ويشرح للطلاب أشعاره ويفسر لهم ما صعب منها ...، وقد استند متهموه إلى ما في رسالة الغفران٣٧. أما أشعاره فيبين في بعضها الشك والإنكار؛ فهو القائل:

نبي من الغربان ليس على شرع * يخبرنا أن الشعوب إلى الصدع

ويقال إن من أسباب خروجه أن فقهاء بغداد تعرضوا له في بيتين هما:

تَناقُضٌ ما لنا إِلّا السُكوتُ لَهُ * وَأَن نَعوذَ بِمَولانا مِنَ النارِ
يَدٌ بِخَمسِ مِئينَ عَسجَدٍ فُدِيَت * ما بالُها قُطِعَت في رُبعِ دينارِ

ويقول المعري في كتابه "الفصول والغايات" الذي قيل عنه أنه معارضة لآي القرآن العظيم وفيه يقول: "أقسم بخالق الخيل، والريح الهابّة بالليل، بين الشّرط ومطالع سُهيل، إن الكافر لطويل الويل، وإن العمر لمكفوف الزّيل، اتّق مدراج السيل، وطالع التوبة من قبيل تنجُ، وما إخالك بناج ..."٣٨:

دينٌ وَكُفرٌ وَأَنباءٌ تُقَصُّ وَفُر * قانٌ يَنُصُّ وَتَوراةٌ وَإِنجيلُ
في كُلِّ جيلٍ أَباطيلٌ يُدانُ بِها * فَهَل تَفَرَّدَ يَوماً بِالهُدى جيلُ
وَمَن أَتاهُ سِجِلُّ السَعدِ عَن قَدَرٍ * عالٍ فَلَيسَ لَهُ بِالخُلدِ تَسجيل

ويقول:

أَدينُ بِرَبٍّ واحِدٍ وَتَجَنُّبٍ * قَبيحَ المَساعي حينَ يُظلَمُ دائِنُ
لَعَمري لَقَد خادَعتُ نَفسِيَ بُرهَةً * وَصَدَّقتُ في أَشياءَ مَن هُوَ مائِنُ
وَخانَتَنِيَ الدُنيا مِراراً وَإِنَّما * يُجَهَّزُ بِالذَمِّ الغَواني الخَوائِنُ
أُعَلِّلُ بِالآمالِ قَلباً مُضَلَّلاً * كَأَنِّيَ لَم أَشعُر بِأَنِّيَ حائِنُ
يُحَدِّثُنا عَمّا يَكونُ مُنَجِّمٌ * وَلَم يَدرِ إِلّا اللَّهُ ما هُوَ كائِنُ

ويقول أيضًا:

إذا ما ذكرنا آدمَ وفعالهِ * وتزويجهُ بنتيهِ ابنيه بِالخنا٣٩
علمنا بأنَّ الخلقَ منْ نسلِ فاجر * وأنَّ جميعَ الناسِ منْ عنصرِ الزّنا

ويقول:

إِنَّ الشَرائِعَ أَلقَت بَينَنا إِحناً * وَأَودَعَتنا أَفانينَ العَداواتِ

٣٧/ أبو العلاء المعري: رسالة الغفران، ص: ٢٥١.
٣٨/ يس الخطيب: الروضة الفيحاء في تواريخ النساء، ص: ٢٣٧.
٣٩/ الخنا: الفاحش أو البذئ من الكلام

وَهَل أُبيحَت نِساءُ القَومِ عَن عُرُضٍ * لِلعُربِ إِلّا بِأَحكامِ النُبُوّاتِ

ويراه أنصاره ومحبوه مؤمنًا موحدًا صادق الإيمان، حيث يقول٤٠:

قالَ المُنَجِّمُ وَالطَبيبُ كِلاهُما * لا تُحشَرُ الأَجسادُ قُلتُ إِلَيكُما

إِن صَحَّ قَولُكُما فَلَستُ بِخاسِرٍ * أَو صَحَّ قَولي فَالخُسارُ عَلَيكُما

طَهَّرتُ ثَوبي لِلصَلاةِ وَقَبلَهُ * طُهرٌ فَأَينَ الطُهرُ مِن جَسَدَيكُما

وَذَكَرتُ رَبّي في الضَمائِرِ مُؤنِساً * خَلَدي بِذاكَ فَأَوحِشا خَلَدَيكُما

وَبَكرتُ في البَردَينِ أَبغي رَحمَةً * مِنهُ وَلا تُرَعانِ في بُردَيكُما

إِن لَم تَعُد بِيَدي مَنافِعُ بِالَّذي * آتي فَهَل مِن عائِدٍ بِيَدَيكُما

بُردُ التَقِيِّ وَإِن تَهَلَّلَ نَسجُهُ * خَيرٌ بِعِلمِ اللَهِ مِن بُردَيكُما

وقد حل المعري معضلة الشك لديه بالتوجه إلى العقل:

يَرتَجي الناسُ أَن يَقومَ إِمامٌ * ناطِقٌ في الكَتيبَةِ الخَرساءِ

كَذَبَ الظَنُّ لا إِمامَ سِوى ال * عَقلِ مُشيراً في صُبحِهِ وَالمَساءِ

فَإِذا ما أَطَعتَهُ جَلَبَ ال * رَحمَةَ عِندَ المَسيرِ وَالإِرساءِ

وهو القائل:

أيها الغر إن خصصت بعقل * فاسألنه فكل عقل نبي

ويتفق المعري، في توجهاته العقلية، مع مذهب الألوهية الطبيعية، وهو مذهب ديني فلسفي ينكر معظم أشكال الديانات التقليدية، وينادي بأن السبيل إلى معرفة الحقيقة لا يكون إلا بالعقل وحده، ويعترف المذهب بمفهوم الإله، ولكن بالمعنى المحدود المتمثل في أنه الخالق، أو المصدر الأول للقوانين المادية والأخلاقية في الكون٤١. ويميل إلى هذا الرأي ويسانده الشاعر العراقي (جميل صدقي الزهاوي)، وقد كان أبوه مفتي بغداد٤٢:

اني افكر في الطبيعة فاحصا * فيعد تفكيري من الالحاد

ما حيلتي وانا امرؤ متفكر * جم الشكوك إلى الحقيقة صاد

انا في حياتي بالحقيقة مغرم * واقولها جهرًا على الاشهاد

يا عقل مالك في شكوكك سائخا * هل فال منك الرأي بعد سداد

في الليل مجرى السيل ليس بمأمن * اما الامان ففوق ظهر الوادي

للكون ابعاد ولست بعارف * ماذا تكون نهاية الابعاد

إن من المؤكد، الذي لا ريب فيه، أن الإنسان لا يستشعر السعادة النفسية واللذة الروحية إلا حين تنمو بذور اليقين الإيماني، في نفسه، ويصل إلى إجابات مقنعة تقتلع جذور الشك من نفسه وتئد بذرته، في مهدها، قبل أن تتمدد وتتشعب في النفس فتقتلها.

ورغمًا عن هذه البحار من الشك التي لا ساحل لها، وتلك الأمواج من الحيرة التي لا يفتأ صداها في العقل يتجدد وفي النفس يتردد، دون أن يجد ما يبدده ..؛ إلا أنه دليل عافية وصحة إيمانية، يقول نصر حامد: "لقد كانت دعوة الإسلام، في جوهرها، دعوة لتأسيس العقل في مجال الفكر والعدل وفي مجال السلوك الاجتماعي بوصفهما نقيضين للجهل والظلم وهما ركيزتا الواقع في المجتمع العربي الذي خاطبه

٤٠/ ديوان المعري: ص: ١٤١٢. موسوعة الشعر العربي الإصدار الأول ٢٠٠٩م. www.poetry.com

٤١/ الموسوعة العربية العالمية ٢٠٠٤م.

٤٢/ جميل صدقي الزهاوي: ص: ١٢٢٠، موسوعة الشعر العربي٢٠٠٩م..

الوحي أولاً٤٣"؛ فالشك، إذًا، ليست بكفر بقدر ما هو صراع نفسي يحتاج إلى الحسم، أو نوع من التذبذب الفكري بين ظلمات الكفر الإلحادي وإشراقة شمس اليقين الإيماني؛ يقول تعالى:
(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) الأنعام: ٧٥-٨٠.
وفي قصة موسى، عليه السلام، مع العبد الصالح ما يفيد بأن عقل موسى لم يستطع أن يستوعب سلوك العبد الصالح في ثلاثة مواقف، وهي خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، مع ما سبق من تحذير لموسى، عليه السلام، بعدم السؤال، وتنبيهه على عدم قدرته على الصبر؛ يقول تعالى:
(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) الكهف:٦٧-٦٨.
وبالفعل تأتي الأحداث لتؤكد ما تنبأ به العبد الصالح ومن خلال التجارب العملية التي مرّت بموسى، عليه السلام، رغمًا عن أنه كان قد التزم بعدم السؤال عن أي شئ وأن يتقبل كل ما سيقع من أفعال؛ يقول تعالى:
(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) الكهف: ٧٠- ٧٧.
والسؤال الذي لابد منه هو، إذا كان هذا هو حال واحد من أعظم الرسل، فلمَ الاستغرب من أن تمر بعض العقول البشرية بمثل ما مر به موسى، عليه السلام،!؟!.
ونقرأ في الصحيح قوله، صلى الله عليه وسلم، (نحن أحق بالشك من إبراهيم، صلى الله عليه وسلم، إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي)٤٤، وفي الصحيح: "جاء أناس من أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذاك صريح الإيمان"٤٥. وأيضًا "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا، خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟، فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل آمن بالله"٤٦.
وقد جاء في كتاب "مشكاة الأنوار" للغزالي فصلاً طويلاً عن الحلاج، حيث اعتذر عن الألفاظ التي كانت تصدر عن الحلاج، مثل قوله "أنا الحق" وقوله "ما في الجبة إلا الله" وهذه الإطلاقات التي ينبو السمع عنها وعن ذكرها وحملها كلها على محامل حسنة، وأولها، وقال: هذا من فرط المحبة وشدة الوجد،

٤٣/ نصر حامد أبو زيد: نقد الخطاب الديني، ص: ١٠١، مكتبة مدبولي (القاهرة)١٩٩٥م.
٤٤/ أبو الحسين مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم، ج١، ص: ١٣٣، دار إحياء التراث العربي (بيروت).
٤٥/ نفس المصدر، ص: ١١٨.
٤٦/ المصدر السابق، ص: ١١٨.

وجعل هذا مثل قول القائل٤٧:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا * نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته * وإذا أبصرته أبصرتنا

***

لا كنت إن كنت أدري كيف كنت ولا * لا كنت إن كنت أدري كيف لم أكن٤٨

وحينما سمع النبي، صلى الله عليه وسلم، حديثًا لقس بن ساعدة الإيادي، قال: "رَحِمَ الله قُسَّ بنَ سَاعِدةَ، إني لأرجو أن يأتي يومَ القيامة أُمَّةً وحدَه"٤٩. يقول قس: "أيها الناسُ اسمعوا واحفظوا وَعُوا، مَنْ عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ، لَيلٌ داجٍ وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، بِحَارٌ تَزْخَرُ، ونُجُومٌ تُزْهِرُ، ومطر ونباتٌ، وآباءٌ وأمهاتٌ، وذاهبٌ وآتٍ، وضوء وظلام، وبِرٌّ وأَثَامٌ، ولِباس ومَركب، ومَطعم ومَشرب، إنَّ في السماءِ لخَبراً، وإنَّ في الأرضِ لعِبَراً، مالِي أرَى الناسَ يذهبون فلا يرجعون؟ أَرَضُوا بالإقامةِ فأقاموا؟ أم تُرِكُوا هناك فناموا؟ يُقسِمُ بالله قُسُّ بنُ ساعِدةَ قَسَمَ بِرٍّ لا إِثْمَ فيه: تالله ما علَى الأرضِ دِينٌ أحبُّ إليَّ من دين نبيٍّ قد أظَلَّكُم زمانُه، وأدركَكُم أوانُه، طُوبَى لمن أدركه

فوافقه، وويلٌ لمن أدركه ففارقه". ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولينَ * منَ القُرون لنا بَصائرْ

لما رأيتُ مَواردًا * للموتِ ليس لها مَصادرْ

ورأيتُ قَومِي نحوَها * يَمضِي الأصاغرُ والأكابرْ

لا يَرجعُ الماضِي إلَ * يَّ ولا من الباقين غابِرْ

أيقنتُ أنِّي لا محا * لَةَ حيثُ صارَ القومُ صائرْ

.الكلمة الأخيرة:

لقد مر عدد من الفلاسفة والمفكرين بمرحلة من الشك، فمنهم من اجتازها بسلام ومنهم من غرق في بحارها. ويعد الإمام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ، ١٠٥٨-١١١١م)، أحد أبرز المفكرين الذين كشفوا عن نزعات الشك والأهواء التي تنازعتهم، في فترة من حياتهم، ويصف الغزالي تلك الحالة النفسية التي تنازعته، في كتابه المنقذ من الضلال، فيقول: "فلم أزل أتردد بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة، قريبًا من ستة أشهر٥٠"، أما الفيلسوف الفرنسي، رنيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠م)، فقد عبر عن تلك النزعة في كتابه، تأَمُّلات في الفلسفة الأولى، بقوله "إنَّ كل شيء قابل للشك٥١". أما توماس بين (١٧٣٧-١٨٠٩م)٥٢. فقد كتب، خلال وجوده في السجن، كتابه (عصر العقل) والذي سماه معظم الناس إنجيل الإلحاد، وفيه يقول: "إنني أومن بإله واحد، لا أكثر، وأتطلع إلى سعادة في حياة بعد هذه الحياة"، ورأى بين في الكنائس الأوروبية القائمة عقبة كأود في سبيل التغيير الاجتماعي. وفي كتاب (جوهان فلفجانج فون جوتة ١٧٤٩-١٨٣٢م) يبيع فاوست روحه للشيطان (مفستُوفوليس) لقاء ٢٤ عامًا يحقق فيها الشيطان لفاوست كل رغباته، وكان فاوست في هذه السنوات يطوف أرجاء أوروبا ويمارس

٤٧/ المصدر السابق، ٥٠٦.

٤٨/ أحمد بن محمد بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، ص: ٥٠٣.

٤٩/ الخطيب الأموي: روضة الأزهار وبهجة النفوس ونزهة الأبصار الجامعة لفنون الأدب، ص: ٣٨٣.

٥٠/ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي: المنقذ من الضلال، ص: ٤٥، مكتبة الجندي (مصر).

٥١/ دافيد سانتلانا: الوجود الإلهي بين انتصارات العقل وتهافت المادة، ص: ١٢، مؤسس ومكتبة الخافقين (دمشق) ١٩٨١م.

٥٢/ الموسوعة العربية العالمية ٢٠٠٤م.

السحر، وفي النهاية يذهب إلى جهنم، ويتملكه الرعب بسبب اللعنة التي حلت به٥٣. يقول التيجاني:

شَكها في هُدى الحَقيقة إيما * ن وَفي ضوئِها يَقين مجوهر
ما بِها إن تَسام في الأَرض خَسفاً * أَو تعادي في رَأيها أَو تكفر
كَم قَبيل مِن الفلاسِفَة الأَو * لى وَكَم أَشعَث هُناكَ وَأَغبَر
كَتب الحَق في صُدورِهم رَم * زين مِن آية الخُلود وَسَطر
رب هِبني رضاك مِن أَين صاغَت * كَفَك الطَلسم الخَفي المستر
المُسمّى بِالعَقل عِندَك في الآ * زال مِن سَير الحَياة وَسَيطر
رَب هِبني رضاك وَالعَقل مِن ذا * عاقَهُ أَن يَبين فينا وَيَظهَر
خَفيت ذاتَهُ عَلَيهِ أَأَضحى * عَرضاً في الزَمان أَم ظَلَ جَوهَراً
يُدهش الفكر نَفسَهُ وَيحار * العَقل في كنهه إِذا ما تَحرر
صُغتَهُ مِن قِوى بنيت الجِبال * الشم مِنها وَكُنت بِالعَقل أَخبر
فَتَخيَرته عَناصر أَدنا * ها اِنفِجار عَلى العَوالم أَكبَر
ثثم أَعميته وَأَرهَفت أذنيه * وَأَطلَقتُه يَقوم وَيَعثر
أَيُّها العَقل أَنتَ يا جيرة العَق * ل وَلما تَكُن بِنَفسك أَجدَر
أَإِله في الأَرض أَنتَ أَم الشَي * طان ينهى في العالَمين وَيَأمر
وَجُنون أَم أَنتَ عَقل وَمَوجو * د حَقيق أَم أَنت وَهُم مُصور

.النتائج:

هناك الكثير من السبل التي يمكن أن تنجي أولئك النفر من المتشككين، لاسيما التيجاني وإيليا، وتخرجهم من دائرة الكفر وتعيدهم لحظيرة الإيمان؛ ولكن لابد من التساؤل، من المسئول عن شك المتشككين؟. والإجابة تكمن في المؤتزرين بلباس الدين٥٤، أما العقائد والمعتقدات الدينية فهي بريئة كل البرائة مما ينسب إليها من دنس الأفكار المنسوبة إلى الدين زورًا وبهتانا؛ يقول المعري:

نادَت عَلى الدينِ في الآفاقِ طائِفَةً * يا قَومُ مَن يَشتَري ديناً بِدينارِ
جَنوا كَبائِرَ آثامٍ وَقَد زَعَموا * أَنَّ الصَغائِرَ تُجني الخُلدَ في النارِ

إن الشك، كوسيلة بحثية، ليس بمرض ولا بعرض لداء عضال بقدر ما هو دليل صحة وعافية فكرية وفلسفية تقوم على استخدام العقل وتمرين ملكاته التأملية والتفكرية في التدبر والفهم والاستيعاب ..، ولا تستند على السير في ركاب الآخرين والخوض مع الخائضين؛ يقول تعالى:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) المدثر: ٤٥-٤٦.

وفي الحديث أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعث معاذ بن جبل إلى اليمن، فقال له: كيف تقضي إن عرض لك القضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله؛ قال: فإن لم يكن ذلك في كتاب الله؟ قال: أقضي بسنة رسول الله؛ قال: فإن لم يكن ذلك في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي، ولا آلو؛ قال: فضرب رسول صلى الله عليه وسلم، صدره بيده، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

إن فكرة الشك، لدى الكثير من الشعراء والمفكرين، مبعثها الرئيس هو السلوك غير السوي الذي

٥٣/ جوهان فلفجانج فون: فاوست، ص: ٥٤، مطبعة الاعتماد (مصر) ١٩٢٩م.

٥٤/ إن من بين أئمة المساجد، وفي قمة انتشار وباء كورونا، من يصيح "سودوا الخلل"، دون أن يدري ما تتسبب فيه هذه الجملة من كوارث.

شهدوه لدى من يعرفون بالكهنة ورجالات الدين، أولئك اللذين ينعقون في المصلين، وفي قمة انتشار وباء كورونا، (سدوا الخلل)، دون أن يدروا ما تتسبب فيه هذه الجملة من كوارث، وكثير منهم قد أقام الجهل في رؤوسهم وعشعش في أدمغتهم. فلا الخطابة يحسنون فنونها، ولا اللغة، التي فعلوا فيها ما لو سمعه سيبيويه والخليل لقاموا من بين الأموات ثائرين. والتمكن من ناصية اللغة أول خطوة في رحلة المعرفة، ولكن الكثير منهم لا يدرك من اللغة إلا حروف أبجديتها ناهيك بالخطابة وفنونها. فلم يتمكنوا من التقدم قيد أنملة عن أسلافهم الذين مضوا قبل قرون وقرون، فهم كما قال، صلى الله عليه وسلم، "كالمنبت لا فلاة قطع ولا ظهرًا أبقى"٥٥. ولنقف مع بعض الأقوال المنتقدة للكهنة ورجال الدين:

ميخائيل نعيمة: وكتاب "الأرواح المتمردة"، كما يدل عنوانه، يحدث عن أرواح تمردت على التقاليد والشرائع القاسية التي تحد من حرية الفكر والقلب التي تسمح لحفنة من الآدميين أن تتحكم في أرازاق الناس وعواطفهم وأعناقهم باسم القانون وباسم الدين٥٦.

جبران خليل: الشريعة! ما الشريعة؟ من رآها نازلة من نور الشمس ...؟ وأي بشر رأى قلب الله فعلم مشئيته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة ... قائلين: أحرموا الضعفاء نور الحياة وأفنوا الساقطين بحد السيف ...؟. ويقول على لسان بعض شخصياته، في الأرواح المتردة، والأجنحة المتكسرة: "لساني لم يعد يتحرك بالصلاة التي يبيعها الرئيس بأموال المؤمنين البسطاء". "لا تدعوا كاهنًا إلى جانب فراشي لأن تعازيمه لا تكفر عن ذنوبي إن كنت خاطئًا ولا تسرع بي إلى الجنة إن كنت بارًا". "إن يسوع قد بعثكم كالخراف بين الذئاب، فأي تعاليم جعلتكم تصيرون كالذئاب بين الخراف؟"٥٧. وفي كتابه مناجاة أرواح: "فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار البركان؛ ثم قال: ... فها قد أوجدت، بقوة إدراكك، سببًا لوجودي لم أكن أعرفه"٥٨. وفي عرائس المروج: " لقد أقاموا، يا يسوع، لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحرير المنسوج والذهب المذوب، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقة الباردة"٥٩.

طه حسين: " فالقرآن بين أيدي المسلمين يقرأونه ويسمعونه ويتعبدون به، ولكن الذين يفهمونه حق فهمه من بينهم يمكن إحصاؤهم. ويجب أن يكونوا من الكثرة فوق الإحصاء، ويجب أن يتجاوزوا به أنفسهم. وأن ينشروا العلم الصحيح بين الناس"٦٠.

٥٥/ أبو منصور الثعالبي: الإعجاز والإيجاز، ص: ٦.

٥٦/جبران خليل جبران: الأرواح المتمردة، ص: ١٢، كتاب الهلال، العدد:٣٦، (القاهرة) ١٩٥٤م.

٥٧/ نفس المصدر، ص: ١٣، ١٧، ٧٤، ٧٦.

٥٨/ جبران خليل جبران: مناجاة أرواح، ص: ٧٤، المكتبة الثقافية (بيروت)

٥٩/ جبران خليل جبران: عرائس المروج، ص: ٥٢، المكتبة الثقافية (بيروت).

٦٠/ طه حسين: مرآة الإسلام، ص: ٣٠٩، دار المعارف (مصر) ١٩٥٩م.

قائمة المراجع

الأنصاري، ابن هشام. (١٩٨٨). شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب. بيروت: المكتبة العصرية.

الأنصاري، ابن هشام. (١٩٩١). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. بيروت: دار الجيل.

الأنصاري، ابن هشام. (١٩٩٦). شرح قطر الندى وبل الصدى. بيروت: دار الجيل.

أبو الحسين مسلم بن الحجاج. (بدون تاريخ). صحيح مسلم، ج١. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

أبو العلاء المعري. (٢٠٠٩). موسوعة الشعر العربيwww.poetry.com .

أبو العلاء المعري. (٢٠٠٩). اللزومياتwww.poetry.com .

أبو العلاء المعري. (٢٠٠٩). رسالة الغفرانwww.poetry.com .

أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن محمد. (بدون تاريخ). المنقذ من الضلال. مصر: مكتبة الجندي.

أحمد بن محمد بن خلكان. (بدون تاريخ). وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان.

الإمام الجوهري، إسماعيل بن حماد. (بدون تاريخ). مختار الصحاح.

التيجاني يوسف بشير. (١٩٧٨). الآثار النثرية الكاملة. جمع وتحقيق: بكري بشير الكتيابي. السودان: مطابع راي.

الخطيب الأموي. (بدون تاريخ). روضة الأزهار وبهجة النفوس ونزهة الأبصار الجامعة لفنون الأدب.

جبران خليل جبران. (١٩٥٤). الأرواح المتمردة – الأجنحة المتكثرة – الموسيقى. مصر: دار الهلال.

جبران خليل جبران. (بدون تاريخ). دمعة وابتسامة. بيروت: المكتبة الأدبية.

جبران خليل جبران. (بدون تاريخ). عرائس المروج. بيروت: المكتبة الثقافية.

جبران خليل جبران. (بدون تاريخ). مناجاة أرواح. بيروت: المكتبة الثقافية.

جبران خليل جبران. (بدون تاريخ). آلهة الأرض والسابق. بيروت: المكتبة الثقافية.

جميل صدقي الزهاوي. (٢٠٠٩). موسوعة الشعر العربي.

جوهان فلفجانج فون. (١٩٢٩). فاوست. مصر: مطبعة الاعتماد.

دافيد سانتلانا. (١٩٨١). الوجود الإلهي بين انتصارات العقل وتهافت المادة. دمشق: مؤسسة ومكتبة الخافقين.

رمضان عبد التواب. (بدون تاريخ). المدخل إلى علم اللغة.

عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي. (بدون تاريخ). الإعجاز والإيجاز. موسوعة الشعر العربي.

ابن قدامة، قدامة بن جعفر بن قدامة. (٢٠٠٩). نقد الشعر. موسوعة الشعر العربي.

طه حسين. (١٩٥٩). مرآة الإسلام. مصر: دار المعارف.

طه حسين. (١٩٨٠). الأيام، ج١. مصر: دار المعارف.

طه حسين. (١٩٨١). مع أبي العلاء في سجنه. مصر: دار المعارف.

كولون ويلسون. (١٩٩٩). الجنس والشباب الذكي. ترجمة: عمر شاهين. مصر: جماعة حور الثقافية.

محمد بن الحسن بن دريد. (٢٠٠٩). جمهرة اللغة. موسوعة الشعر العربي.

محمد محمود. (٢٠١٣). نبوة محمد: التاريخ والصناعة. لندن: مركز الدراسات النقدية للأديان.

الموسوعة العربية العالمية. (٢٠٠٤.(

نصر حامد أبو زيد. (١٩٩٥). نقد الخطاب الديني. القاهرة: مكتبة مدبولي.

يس الخطيب. (بدون تاريخ). الروضة الفيحاء في تواريخ النساء.